مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد ١٣، العدد ٢ (١٩٩٩)، ٦٢٦-٦٧٩

الهامة والصدى، صدى الروح في الشعر الجاهلي

Forehead & Echo, Echo of Soul, in Pre- Islamic Poetry

إحسان الديك

Ihsan a-Deek

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين

تاريخ التقديم: (١٩٩٨/٨/٣١)، تاريخ القبول: (١٩٩٩/٤/٧)

ملخص

يحاول هذا البحث أن ينزل الشاعر الجاهلي المنزلة التي تنبغي له، وأن يعيد إليه بعضاً من اعتباره، فيتناول الهامة والصدى صدى للروح في الشعر الجاهلي؛ ليؤكد أن الانسان الجاهلي لم يكن منبتّاًعمن حوله من الشعوب القديمة التي جاورته، وأنه التقى مع الإنسان القديم بعامة، في تصوّراته، وطرائق تفكيره ونظرته للحياة والموت والكون من حوله.

وتجلية لذلك، يجيب البحث عن بعض التساؤلات مثل: لِمَ تخيل العرب الروح هامة أو صدى؟ ومن أين جاء هذان المصطلحان؟ وكيف شقّا طريقهما إلى اللغة العربية؟ ولم ربط العرب بينهما وبين اليوم؟ وهل لهذا الربط جذور عقدية قديمة تمتّ للفكر الإنساني بصلة؟

This Paper endeavored to give the pre-Islamic poet the rank he deserres, and to restore some of This due regard. This paper tackled the fore head and echo, echo of the soul in Pre-Islamic in order to emphasize that the pre-Islamic(Jahili) man hadn't been alierated from the surrounding ancient peoples neighboring him. On the controy, he met and crossed with the ancient man in general in his perceptions, ways of thinking, view of life and death and the Univere around him.

Specifically this paper raised several questions:

Why did the Arabs portray the soul as a forehead or an echo ? From where did there terms come? How did they enter the Arabic Languae? Why did the Link/ associate them with the oirl? Does this association have any ancient ideological roots directly related to human thinking?

تأسيس

ليس اجتراراً للماضي، ولا تغنيّاً بأمجاده، إذا ما ثنّينا وأثنينا على جهود كثير من الباحثين المنصفين الذين أكدوا عراقة العرب، وامتداد جذورهم في أعماق التاريخ، ووجود كيان قديم موغل في القدم لهم، له علائق وصلات وثيقة مع الأمم القديمة الأخرى التي جاورته، كالبابليين، والآشوريين، والكنعانيين، والمصريين، والفرس، وغيرهم من شعوب المنطقة.

فلقد ولّى ذاك الزمان الذي سادت فيه نظريات القائلين بعزلة العرب، وتقوقعهم، وانكفائهم على ذواتهم، وبأنهم جماعات متفرقة من البدو عدّتها الخيمة والبعير، ولولا أنها انضوت تحت لواء الإسلام، فوحدّها، وأخرجها من قمقمها؛ لما التقت بالعالم المتحضر، ولظلت قابعة في مجاهل الصحراء حيث طوتها كثبان رمالها.

ولقد انداحت -كذلك- تلك المقولات التي درج القدماء والمحدثون على ترددها، والتي تتهم العقلية العربية الجاهلية بالسذاجة، والبساطة، وضيق الأفق، وتصم العصر الجاهلي بالتخلف الحضاري والثقافي .

ومن المكرور القول: إن مصطلح "الجاهلية" لم يكن وصفاً علمياً بقدر ما كان تسمية دينية، وإن في الأخبار المروية عن الجاهليين ما يؤكد معرفتهم بالقراءة والكتابة، لا في حدود لغتهم وحسب، بل في اطلاعهم على اللغات الأخرى، مثل الفارسية، والعبرية، والسريانية، وأنهم كانوا على صلة بطريق أو بأخرى بديانات الأمم المجاورة لهم وثقافاتها، فهل يعقل أن تحيط الحضارات بشبه الجزيرة العربية ثم لا يوجد شيء منها فيها؟ أم هل يعقل -كذلك- أن تكون

للشعوب السامية -والعرب جزء منها -محاولات للتعرف إلى مظاهر الوجود من حولها، ولا يكون للعرب شيء منها؟.

يرى "لويس سبنس" Lewis Spence أن الدين السامي القديم، نشأ أول ما نشأ في الجزيرة العربية، وأنه انتشر عبر العراق شمالاً حتى بحيرة "وان"، وإلى مصر، وشمال أفريقيا من خلال شبه جزيرة سيناء[١].

إن أهم ما يعنينا من إشارة سبنس السابقة ليس الحديث عن موطن الدين السامي ونشأته الأولى، فتلك قضية اختلف حولها الباحثون، ولم يجمعوا فيها على رأي واحد[٢]، وإنما الذي يعنينا وجود أصل واحد لهذا الدين، ووجود صلة حميمة، وارتباط وثيق بين طقوس الشعوب السامية وشعائرها ومعبوداتها في شتى مواطنها ومواقعها، "فلقد كشفت الدراسات الأسطورية المقارنة عن أن هناك أساساً أسطورياً وعقائدياً، بل لاهوتياً مشتركاً لأغلب هذه الشعوب منذ أكثر من ألفي عام قبل الميلاد، سواء فيما بين النهرين، أو في مكة واليمن والشام وفلسطين"[٣].

لا بد إذن أن يكون للعرب موروثهم الثقافي، ونتاجهم الأدبي الذي يتناسب مع عراقتهم، وتاريخهم الطويل، أسوة بإخوانهم الساميين، فلا شعب قط دون حضارة (Culture)، أي دون موروثات ثقافية محددة تخرجه عن نطاق الانحطاط والهمجية"[٤].

ويقدم الشعر الجاهلي في حدوده الزمنية التي تعارف عليها النقاد والأدباء تحدّياً كبيراً لدارسه عندما يحاول الوقوف على البداية التي انطلق منها هذا الشعر حتى وصل إلى ما هو عليه من نضج واستواء، فلا يمكن أن تكون تلك الفترة القصيرة هي الحلقة الأولى دون أن تكون هنالك مقدمات، أو تاريخ طويل من التطور عبر قرون عديدة، ولعل ذلك ما صرف الباحثين عن الخوض في هذه المسألة، فاكتفوا بما اكتفى به الجاحظ من عمر هذا الشعر[٥].

ويصعب علينا تتبّع تطور الشعر الجاهلي منذ طفولته إلى أن استوى على عوده على يد المهلهل بن ربيعة، وذلك لجهلنا بتاريخ الأمة العربية، ولأن نصوص هذا الشعر قد أفلتت من ذاكرة التاريخ الأدبي، ولكنّ ذلك لا يحول، ونحن نتساءل عن أسباب نشوء هذا الشعر دون أن

أيّما إنكار، وعارضوها أشد معارضة، وحاجّوا بها الرسول صلى الله عليه وسلم، بل إنهم تندروا بها، وسخروا منها، فقالوا: " أإذا متنا وكنا عظاماً أإنا لمبعوثون ؟"(٩) .

بيد أن هذا الإنكار الشديد للبعث، لم يمنعهم من التفكير في الجانب الآخر من الموت، فالفناء - لديهم - للجسد وحده، ولذلك أدركوا أن الموت ليس النهاية التي ينتهي عندها مسار الإنسان، وإنما بمثابة عبور لحال أخرى يحل الإنسان فيها أو روحه ضيفاً على عالم آخر، أو هو مرحلة ينتقل فيها من حالة إلى حالة أخرى من أحوال الوجود، ولهذا لم يكن خوفهم من الموت خوفاً من العدم، وإنّما كان خوفاً من عالم مجهول ستؤول إليه أرواحهم، ما شكله؟ وما هي أحواله؟ وما طبيعة الحياة التي ستحياها الأرواح فيه؟ أهي كالحياة الدنيا بملذاتها وشرورها؟ أم أن هذا العالم يختلف عن عالمنا الذي نعيش فيه؟ هذه الأسئلة وغيرها شقت طريقها بمرارة إلى ذهن الإنسان الجاهلي، وحاول أن يجد الإجابات الشافية عنها، والتفسيرات المقنعة لها، شأنه في ذلك شأن غيره من أبناء الشعوب القديمة الأخرى.

ولأن هذه الأسئلة قديمة قدم الإنسان، ولأن الموروث الإنساني جمعي متوارث عبر الأجيال، فإن العودة إلى تتبع قديم هذا التراث، فيها تجل للمبحوث، وتحديد لموقعه، وفهم لدوره في إطار من الزمان والمكان، وفيها إلقاء ضوء على مصطلحي الهامة والصدى.

الروح هواء

يرتبط معنى الروح عند الإنسان الجاهلي والإنسان القديم بتصوره لمظاهر الحياة من حوله، فقد شعر أن في جسمه شيئاً لطيفاً خارجاً عن حدود المادة، لا يستطيع الإمساك به، أو لمسه، وأحسّ أنه مصدر للحياة، والقوى المحركة، والمدركة في جسده، وبانفصاله عن الجسد يقع الموت.

وفي إطار هذا التصور كان الهواء أقرب العناصر الطبيعية إلى هذا الشيء، وأكثرها ارتباطاً به، وكانت ألفاظ النَّفَس والريح والنسيم في العربية تدل على الهواء كدلالتها على الروح، ليس هذا في العربية وحسب وإنما في أغلب اللغات الأعجمية الأخرى(١٠) .

وانسحب مثل هذا التصور على قضية الخلق والتكوين، فلدى ذاك الإنسان، الذي كان يجسم كل شيء من حوله، ويجعل له روحاً، لا فرق بين خلقه وخلق الكون.

وكما أن لكل شيء نهاية، فلا بد له من بداية أيضاً، ولذا فلن تتضح صورة نهاية الروح وخروجها من جسد الإنسان القديم، إلا إذا عرفنا صورة بدايتها، وولوجها في ذاك الجسد، ولن يتسنى لنا ذلك إلا إذا تتبعنا معتقده في الهواء، وعلاقة الهواء بخلق الكون والإنسان على حد سواء.

وما أن نطلّ على بداية التاريخ البشري في بلاد ما بين النهرين في أيام السومريين، حتى يطالعنا الهواء باعتباره أحد العناصر الثلاثة الأولى المكونة للخلق والتكوين، من خلال الإله "إنليل" – إله الهواء – الذي كان له فضل فصل السماء (آن) عن الأرض (كي)، وهما الإلهان اللذان أنجبتهما الإله الأم "نمو"، إلهة المياه الأولى بعد أن تزوجا وأنجبا الإله "إنليل"، وكان يعيش بينهما في مساحة ضيقة لا تسمح له بالحركة، فقام من خلال قوته الخارقة بإبعاد أبيه عن أمه، تصفه الأسطورة السومرية فتقول:

"إنليل الذي أنبت الحب والمرعى

أبعد السماء عن الأرض

وأبعد الأرض عن السماء"(١١) .

وفي ملحمة التكوين البابلية "الأنوما إيليش(١٢) " ينطلق الإله "مردوخ" بمركبته الإلهية، مركبة العاصفة الرهيبة التي يقودها الإله "هم" المدمر العتي الساحق الطيار، ويتوجه نحو الأم الأولى الإلهة "تعامة" ليقتلها، فتفتح فاها لتبتلعه، فيدفع "مردوخ الرياح الشيطانية "الامهيليو" إلى بطنها، فينتفخ، وتمتنع عن الحركة، ثم يمسك بها، ويشقها نصفين، يرفع الأول سماء ويهبط الثاني أرضاً، وتحمل الرياح دماءها إلى الأماكن القصيّة(١٣) .

وفي الأسطورة المصرية نجد إله الهواء "شو" يزجّ بنفسه ليفصل بين " نوت" إلهة السماء المؤنثة، و "جب" إله الأرض المذكر، بعد أن كانا في حالة اتحاد(١٤) .

وتعزو أسطورة التكوين الفينيقية الخلق كله إلى الهواء فتقول: "في البدء لم يكن هناك سوى هواء عاصف، وخواء مظلم، ثم إن هذا الهواء وقع في حبّ مبادئه الخاصة، وتمازج ذاك التمازج الذي دعي "الرغبة" ، وهي مبدأ خلق جميع الأشياء، ونشأ عن تمازج الهواء "موت" الذي كان عبارة عن كتلة من الطين أو مجموعة من العناصر المائية المتخمرة وهو بذرة خلق وأصل الأشياء"[١٥] .

وتقول الأسطورة الكنعانية "في البدء كان روح الإله المذكر يرف فوق المياه المؤنثة"[١٦] أما أسطورة الخلق الصينية فترى أن السماء والأرض كانتا ممتزجتين امتزاجاً لا انفصام له (هون -تون) كبيضة الفرخ، حيث أنجبت داخلها (با أن-كو) القدم المتراكم، فمات، فتحولت أنفاسه فصارت الرياح والسحب"[١٧] .

ويخلق الإله "يهوه " التوراتي السماوات والأرض، وكما يلاحظ فإن اسمه يرتبط بالهواء، وتؤكد التوراة أنه كان روحاً يرف على وجه الماء[١٨] ، وتصفه بأنه راكب الغيوم[١٩] .

ويوضح الطبري علاقة الهواء بالخلق والكون فيقول: "إن الله خلق الماء على متن الريح، ووضع عليه عرشه، ثم خلق البيت العتيق فوق الماء ، ثم قبض قبضة من حجارة ، ثم فتح القبضة، فتنفس الماء وارتفع دخاناً ، وإذا بسبع سماوات في كل سماء ملائكتها، ثم خلق الحوت، ودحا الأرض على ظهره"[٢٠] .

وكما كان للهواء دور في خلق الكل (الكون)، كان له دور أيضاً في خلق الجزء (الإنسان)، بل إن عملية خلق الإنسان تعتمد في أساسها على الهواء، وأول أسطورة خطتها يد الإنسان عن خلقه هي الأسطورة السومرية، وتوضح هذه الأسطورة فكرة خلق الإنسان من طين وماء، وتصويره على صورة الآلهة، ولكنها لا توضح كيفية بعث الروح في جسد هذا المخلوق، وذلك لتشوه اللوح الفخاري الذي حمل هذا النص[٢١] .

وتستمد الأسطورة البابلية عنصر الطين في خلق الإنسان، غير أن هذا الطين يعجن بدم الإله المذنب (كنغو) بدلاً من الماء[٢٢] ، وتصف الإله الخالق بقولها:

"إله النسمة الخالقة سميع مجيب الدعوات

الذي تنسمنا أنفاسه أيام البلوى

أزاح عن أعدائه من الآلهة عبء العمل المفروض

فخلق الإنسان لهم محرراً"(٢٣) .

فتوضح الأسطورة أن عملية الخلق تتم عبر هذه النسمة الخالقة ومن خلالها، لكنها لم تحدد طريقة نفخ هذه النسمة في الجسد، ومكان نفخها. ونجد مثل هذا التحديد في ترتيلة مصرية قديمة تصف الإله الخالق فتقول:

"هو الحقيقة يحيا في الحقيقة، إنه ملك الحقيقة،

هو الحياة الأبدية به يحيا الإنسان،

ينفخ في أنفه نسمة الحياة"(٢٤) .

وتقول أسطورة مصرية أخرى: "وبالرعاية الحسنة قد حظي البشر مواشي الله، لقد صنع السماء والأرض حسب مشيئتهم وصنع نفس الحياة لخياشيمهم، إنهم صورة له انطلقت من جسده"(٢٥) .

وتتمثل الأسطورة التوراتية العناصر القديمة في خلق الإنسان، فتقول: " وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة الحياة، فصار آدم نفساً حية"(٢٦) وتقول: أيضا "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا، كشبهنا ... فخلق الرب الإنسان على صورته، على صورة الرب خلقه"(٢٧) . ولهذا اعتقد اليهود أن أرواحهم جزء من روح الله كما الابن جزء من أبيه، وأنها تتميز عن باقي أرواح الناس، ولذا فهي أعز على "يهوه" من باقي الأرواح، التي تعتبر أرواحاً شيطانية شبيهة بأرواح الحيوانات(٢٨) .

وتعزو الأساطير الإغريقية خلق الإنسان لـ "بروميثيوس"، الذي خلق الإنسان من تراب وماء، وحينما استوى قائماً نفخت الإلهة أثينا فيه الروح"(٢٩) .

وترى الديانة الهندوسية أن عملية الخلق تمت بوساطة "براهما"، الذي كان روحاً ليس ذكراً ولا أنثى، صنع في البدء شيئاً كبيراً، ونفخ فيه، فحصل على نصفين (رجل وامرأة) وهما أول زوج وأول زوجة[٣٠] .

ومن الأدلة الأخرى التي تعزز ما ذهبنا إليه في أن الروح ريح، أو هواء، أو نسم، في المعتقدات القديمة، ما ورد عن جلجامش حين ذهب متوسلاً إلى الإله (أيا) كي يعيد إليه روح صديقه أنكيدو من العالم السفلي، فأمر هذا الإله بدوره البطل المحارب الإله "نرجال" أن يفتح ثقباً في الأرض حتى تخرج منه روح أنكيدو:

"حالاً فتح ثقباً في الأرض

فخرجت روح أنكيدو من العالم السفلي مثل الريح".[٣١]

ومنها كذلك أن لقب "نليل" زوج إله الهواء السومري "إنليل" هو سيدة النسيم"[٣٢]، وقد كانت إلهة للعالم السفلي، الذي تتجمع فيه أرواح الموتى. وفي أسطورة الطوفان السومرية، يمنح الإلهان "أنو" و "أنليل" الملك زيوسودرا (نوح السومري) نسمة الخلود[٣٣] .

وقد جمعت اللغة السريانية بين الروح والريح في المعنى[٣٤] ، ووحدت اللغة العبرية بين اللفظين في كلمة "رُوَّح"، وفي "نَشَما" التي تعني النسمة والروح، كما استخدمت التوراة الدم بمعنى النفس والجسد، وذلك حين خاطب الربّ قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل قائلاً له: "ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك"[٣٥] .

وشبهت أسطورة "أقهت" الكنعانية الروح بالريح، والنفس بالنسمة، وأشارت إلى خروج الروح من الأنف حين الموت، وذلك على لسان الإلهة "عناة" عندما أمرت الإله "يطفان" بقتل أقهت بن دانيال بقولها:

"وأجعلك تضرب هامته مرتين

وثلاث مرات على أذنه، فيسفك الدم

كدم شاة تنحر على ركبتها، وتخرج

منه الروح كعصفة ريح، ونفسه كنسمة

كدخان من أنفه، من الأنف شجاعته تخرج"[٣٦]

وتقابلنا في الأساطير الإغريقية الهاربيات (Herpies)، وهي مخلوقات مجنحة كريهة، أجسادها أجساد طيور، ورؤوسها رؤوس بشرية، وهن تشخيص للرياح العاصفة المدمرة، ينفثن رائحة نتنة في طعام ضحاياهن، وينقلن أرواح الموتى[٣٧] .

وفي تعويذة مصرية قديمة في كتاب الموتى، تقول "سخمت" إلهة العالم السفلي:

"إني سخمت المقيمة في الغرب نسمة السماء العظيمة، وسط أرواح هليوبوليس"[٣٨].

وإذا انتقلنا من عصر الأسطورة والخيال إلى عصر الفلسفة والعقل، فإننا نرى التصور ذاته، فهذا "انكسمنيس" أحد الفلاسفة اليونانيين، يشير إلى الهواء، وليس إلى إله الهواء، فلا يعتبره مجرد مادة فيزيائية وحسب، وإنما يرى أنه متصل بإدامة الحياة، وأنه عامل من العوامل الحيوية، فيربط بينه وبين الروح فيقول: "كما أن الروح وهي هواء تحافظ على التماسك فينا، هكذا يحيط النفس والهواء بالعالم كله". [٣٩]

من خلال هذه النصوص المتفرقة، التي غطت مساحة زمانية واسعة، نستطيع استقراء تصور الإنسان القديم للروح، فهي في اعتقاده نفخ، وريح، ونفس، ونسم، لها علاقة بالدم، تدخل في جسد الإنسان حين يخلق عبر أنفه، وتخرج من المكان نفسه حين يموت.

ومن الغرابة بمكان أن نرى هذه المعاني التي وردت متفرقة عند الأمم القديمة، قد وردت مجتمعة في اللغة العربية، ففي مادة "روح" في (اللسان) نجد أن الروح هي النفخ، سمي روحا لأنه ريح يخرج من الروح، والريح: نسيم الهواء، والجمع رياح وأرواح، والروح: النفس الذي ينبثق من الإنسان، والروح: النَّفْس، والروح والنفْس واحد عند العرب غير أن الروح مذكر والنفس مؤنثة، والروح من روح الله أي من رحمته.

ونرى ألفاظ النفس، والريح والنسم، تتبادل المواقع في المعنى، وكل لفظ منها يدل على معاني الروح العامة مجتمعة[٤٠] .

واعتقد العرب أن روح الميت تخرج من أنفه، أو من فمه إذا مات ميتة طبيعية، فكانوا يقولون عنه (مات حتف أنفه)، أو (حتف فيه)، أو (حتف أنفيه)، أما القتيل، أو الجريح، فتخرج روحه من مكان جرحه[٤١].

وقد تمثل الشاعر الجاهلي معاني الروح المختلفة، والعلاقات بينها، فهذا عبيد بن الأبرص يربط بين الريح والروح فيقول[٤٢].

هل نحن إلا كأجساد تمر بها

تحت التراب، وأرواح كأرواح

ويستخدم أمية بن أبي الصلت النسم بمعنى الروح فيقول [٤٣].

يموت كما مات من قد مضى

يرد إلى الله باري النسم

وتأتي النفس عند حذيفة بن أنس بمعنى الروح في قوله [٤٤].

نجا سالم والنفس منه بشدقه

ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا

وسمي السموأل بن عاديا الدم نفسا، لأن النفس تخرج بخروجه فقال[٤٥].

تسيل على حد الظبات نفوسنا

وليس على غير الظبات تسيل

وربط أوس بن حجر بين الدم والنفس حين أضاف التامور (الدم) إلى النفس في رثائه المنذر بن ماء السماء، فقال [٤٦].

نبئت أن بني سحيم أدخلوا

أبياتهم تامور نفس المنذر

بذا نرى أن العرب كانوا مثل بقية خلق الله في ذاك الزمان، ولم يتخلفوا أو يختلفوا عن الشعوب القديمة في تصورهم لماهية الروح وطبيعتها.

الروح طير

يقول فردريش فون دير لاين: "وأغلب تصور للروح شيوعاً هو بحق تصوره وهو يطير في صورة طائر، وربما يرجع هذا إلى اعتقاد الإنسان أن الروح شيء خفيف الوزن، إذ إنـــه يقـــدر على الطيران في الأحلام، وربما يرجع هذا كذلك إلى أن صوت بعض الطيور كثيرا ما يتشـــابه بعض الشيء مع صوت الإنسان" (٤٧).

وفي اعتقادي أن مثل هذا التصور قد صدر -كما وضحنا من قبل - عـــن تخيـــل الإنســـان القديم روح الإله والإنسان معا هواء، لاعتقاد ذاك الإنسان أن روحه منبثقة عن روح الإله وهـــي جزء منه، ففي نحت بارز محفوظ في متحف دمشق، يمثل الفن الكنعاني عشتار المجنحـــة وقـــد نشرت جناحيها اللذين يملآن الصورة (٤٨)، وفي المتحف المصري صورة للإله "تحـــوت" علـــى شكل الطائر أبيس "اللقلق" (٤٩)، كما عبد المصريـــون الطـــائر المقـــدس "بينـــو" باعتبـــاره روح أوزوريس (٥٠). وفي التوراة كان روح الإله في البدء يرف على الماء (٥١)، وفي أسطورة أقـــهت الكنعانية، يتحدث دانيال إلى الرفؤم أو الرفائيم، وهي أرواح الملوك الخالدة، التي أضحـــت فـــي مصاف الآلهة(٥٢).

هكذا كانت روح الإنسان القديم، على صورة روح إلهه مجسمة في هيئة الطير، فـــها هـــي عشتار السومرية تصف سكان العالم السفلي بأنهم:

"يسبحون في الظلام، فلا بصيص ولا شعاع

عليهم أجنحة تنقلهم كالطيور"(٥٣)

وصور المصريون الروح على شكل طائر برأس آدمي، وأطلقـــوا عليـــه اســـم "بـــا"(٥٤)، وشاركهم في هذا التصور البابليون، يقول أنكيدو لصديقه جلجامش محدثاً عن لحظة موته في حلم رآه وقد جاءه شخص وجهه كالطائر، ومخالبه كالنسر:

"وأخذ بخناقي حتى خمدت أنفاسي

لقد بدّل هيئتي، فصار ساعداي مثل جناحي طائر

مكسوتين بالريش

ونظر إليّ وأمسك بي وقادني إلى دار الظلمة"[٥٥].

وبمثل هذا اعتقد الفينيقيون، فقد ذكر أحد الكتاب الإغريق "أن الفينيقيين كانوا يضحّون بعصافير السلوى لهرقل (ملكارت)، لأن "تايفون" كان قد صرعه في أثناء رحلته إلى ليبيا فأعاده "أبولاوس" إلى الحياة بأن وضع تحت أنفه سلوى، فشمّ الإله الميت العصفور فعادت إليه الروح"[٥٦]، وتقول الأساطير الفينيقية أن "استيريا" أم هرقل (ملكارت) الصوري، قد تحولت إلى سلوى[٥٧].

وتخيل اليونانيون روح الميت طائراً صغيراً في شكل الإنسان، تقول أسطورة "هرقل" واصفة موت هذا البطل:

"وهوى إلى الأرض ما كان من الأرض، ورفرفت

الروح الخالدة في جمهرة من أرواح الآلهة"[٥٨].

وتبدو الحمامة في الفكر الأيقوني المسيحي رمزاً للألوهة والروح القدس[٥٩].

هذا هو التصور الشائع بين الأمم القديمة عن الروح، وهو الشائع بين الناس إلى يومنا هذا[٦٠]، فإذا مات الإنسان تصعد روحه إلى خالقها، أو إلى السماء، والأرواح طيور تكون في أجساد أصحابها، وإذا ما تركت هذه الأجساد ، وسبحت في الفضاء، ورفرفت في الأعالي فإن أجساد أصحابها تموت وتبلى، وبهذا الرأي أخذ الجاهليون، فتصوروا "النفس طائراً ينبسط في جسم الإنسان، فإذا مات أو قتل، لم يزل مطيفاً به، متصوراً إليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً ... وكانوا يزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً، ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم"[٦١]

وكانوا يعتقدون "أنه إذا مات أو قتل اجتمع دم الدماغ، أو أجزاء منه فانتصب طيراً هامة[٦٢]، ولذا سموا مخ الدماغ بنات الهام[٦٣].

ولقد احتفظت العربية الفصحى بمثل هذا التصور حين جمعت بين النسم الذي هو النفس والروح، وبين النسم التي هي طير سراع خفاف، لا يستبينها الإنسان من خفتها وسرعتها[٦٤]، وحين أشارت إلى علاقة الروح بالطير، من خلال الطير الرَّوَحْ وهي المتفرقة، وقد ذكرها الأعشى فقال[٦٥]:

ما تعيف اليوم في الطير الرَّوَحْ

من غراب البين أو تيس بَرَحْ

وفي التصور الإسلامي، يؤكد البقاعي علاقة الروح بالطير، من خلال أحاديث ينسبها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فيورد قوله صلى الله عليه وسلم "نسمة المؤمن طائر"[٦٦]، وقوله عن أرواح المسلمين أنها "في طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وأرواح الكفار محبوسة في سجين"[٦٧]، وفي حديث عن أم كبشة بنت المعرور قالت: دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم، فسألنا عن هذه الروح، فوصفها صفة لكنه أبكى أهل الميت، فقال: "إن أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر، ترعى في الجنة، وتأكل من ثمارها، وتشرب من مياهها، وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش يقولون: ربنا ألحق بنا إخواننا، وآتنا ما وعدتنا، وإن أرواح الكفار في حواصل طير سود، تأكل من النار، وتشرب من النار، وتأوي إلى حجر من النار"[٦٨].

وفي كل ما سقناه من أدله يؤكد أن تصورات العرب تتسق مع تصورات الأمم القديمة كلها، وبذا لا يخالف العرب البابليين في هذا التصور كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين[٦٩].

وفي ضوء هذه المعتقدات القديمة لنا أن نربط بين الطيرة، والعيافة، والزجر، والكهانة، التي انتشرت انتشاراً واسعاً عند العرب، وعند غيرهم من الشعوب، كاليونان، والفرس، والرومان، وبين استحالة الأرواح طيوراً بعد مفارقة أجساد أصحابها، حيث تعي وتفهم ما يقال لها، من هنا ظهرت فكرة منطق الطير عند سليمان عليه السلام [٧٠].

وسواء أكانت الطيرة مشتقة من الطيران أم من الطير، وهو الأصل والمختار [٧١]، ثم تجاوزوا الطير، فتطيروا بالحيوان والنبات والجماد، فإن لها علاقة بخفّة الروح، ورفرفتها،

وطيرانها في الهواء، والعيافة كذلك مشتقة من عِفْت الطير أعيفها، زجرتها، وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها وأنوائها فتتسعد أو تتشأّم، والعائف هو المتكهن بالطير [٧٢].

لِمَ الهامة والصدى صدى الروح؟

رأينا من قبل كيف ارتبطت الروح بالهواء، وجسمت في هيئة الطير عند العرب والشعوب القديمة جمعاء، ولنا أن نتساءل بعد، لم تخيل العرب الروح هامة أو صدى؟ ومن أين جاء هذان المصطلحان؟ وكيف شقا طريقهما إلى اللغة العربية؟ أهما قديمان قِدَم العربية في ساميتها أم أنهما طارئان جديدان ولدا من خصوصية الحياة العربية وطبيعتها الصحراوية؟ ولِمَ ربط العرب بين هذين المصطلحين والبوم؟ وهل لهذا الربط جذور تاريخية ودينية قديمة تمتّ للفكر القديم بصلة؟ أو أنه مجرد نزوة خيال وخرافة؟.

وللإجابة عن هذه الأسئلة ومثيلاتها، لا بد لنا من تتبع الألفاظ التي تقترب في النطق من لفظ الهامة، وتمت إليه بصلة في أديان الشعوب القديمة ومعتقداتها الميثولوجية، علّها تساعدنا في إلقاء الضوء على هذا المصطلح.

نبدأ باللغة السريانية التي احتفظت بمعاني حروف الأصل العربي للهامة "هوم" وكذلك جمعها "هام" فحرف الهاء في هذه اللغة يعني النافذة أو شبكة حديدها، [٧٣]، ولا تخفى علاقة النافذة بالهواء، وارتباط الهواء بالروح كما أسلفنا من قبل، والمقطع "ها" أو "هو" يعني الآن، أي الزمن والدهر[٧٤]، وهو صفة الأرواح في بقائها وخلودها، أما حرف الميم فمعناه الماء [٧٥]، ولقد رأينا وسنرى علاقة الروح بالماء .

وتقدم الأسطورة السومرية "جلجامش وأنكيدو والعالم الأسفل" وصفاً مفصلاً لعالم الموتى، ويقابلنا في هذه الأسطورة "هامو طابال"، أما دوره في هذا العالم، فيظهر من خلال "مغادرة أرواح الموتى أجساد أصحابها عبر القبر إلى سكناها الأخيرة، وأول ما يهبط الزائر الجديد يصادفه نهر "هابور" وهو نهر العالم الأسفل، ويحيّيه ملاح النهر "هامو طابال" ذو أربعة الرؤوس

الطير، وينقله في قارب إلى الطرف الآخر حيث بوابات الموتى" (٧٦)، وتعني "مـــي" فـــي اللغـــة السومرية، النواميس التي وضعها الخالق للمخلوقات (٧٧).

وفي أسطورة التكوين البابلية رأينا من قبل "هم" "هم المدمر والعتي والساحق والطيّار" قـــائد مركبة الإله مردوخ، مركبة العاصفة الرهيبة، الذي يتوجه لقتل تعامة(٧٨).

وفي أسطورة "جلجامش ودار الأحياء" نجد التنين "هواوا" الذي يقتله جلجامش حتـــى يخلـــد اسمه(٧٩).

وفي الأساطير المصرية هناك "هرمانونيس" الإله الذي يحاكم الأرواح(٨٠)، و "هارمـــاخيس" وهو اسم علم لأبي الهول ويعني "حورس الذي في الأفق"(٨١)، و "هو" وهو معبود يرمز إلى رأس الإنسان(٨٢)، و "هي" وهو إله يجسد الأبدية، ويمثل الزمن الذي لا ينتهي(٨٣)، و "هرموتيس" وهـــو مكان له علاقة بأرواح الموتى(٨٤).

وعند الكنعانيين نجد "همري" وهي مدينة الموتى، أو عالم الموت(٨٥) عندهم، وكذلك "هرون" وهو من الآلهة الصغار التي تتحكم بأمور الحياة والموت(٨٦).

وعند اليونانيين هناك "هرمس" المعبود الذي يقود أرواح الموتى إلى "هاديس" إلـــه الهاويـــة والعالم الأسفل، كان في بادئ الأمر الروح الكامنة في الحجر، ثم أصبح الحجـــر الطويـــل الـــذي يوضع فوق القبر(٨٧)، وهناك "هرمونيا" زوج الإله قدموس الـــذي علـــم اليونـــان الكتابـــة(٨٨)، و "هيقات" أو "هيكاتي" إلهة العالم الأسفل والموكلة بالموت والدمار(٨٩)، و "هيبروس" وهـــو النـــهر الذي أُلقي فيه رأس الإله الملك "أرفيوس" وقيثارته(٩٠)، و "هيبتوس" إله النوم، وهـــو أخـــو إلـــه الموت، يسكن في العالم السفلي، ويقوم بإنامة البشر، ويتخذ شكل طائر ليلي(٩١).

وفي الأساطير الفارسية نجد "هوما" أو "هاوما" وهو الإله أو الثور المقدس الذي مـــات ثـــم بعث حياً ليقدم دمه للجنس البشري، ويسبغ على البشر الخلود(٩٢)، و "أهريمان" وهو مـــن آلهـــة العالم السفلي(٩٣)، و "هَمِستَكان" Hamistakan، وهي منزلة بين الجحيم والنعيم، بمثابـــة المطـــهر الذي تكفّر فيه النفس عن خطاياها، وتبقى النفس في هذا المطهر فترة ثم تنقل إلى النعيم(٩٤).

وعند اليابانيين "إيماهوو" إله الجحيم وقاضي جهنم الأعلى[٩٥] أما عند الروس فهناك "هو" روح البيت وهو معبود الفلاحين [٩٦]، وعند الهنود "براهمن" وهو القاع الكلي الذي تصدره عنه جميع النفوس التي تقيم في الأجساد الحية، وفي الآلهة المتعددة [٩٧]،

ومن هذا القبيل عند العرب "همى" وهو اسم صنم [٩٨]، و"هياه" من أسماء الشياطين وأصلها سريانية [٩٩].

ونأتي أخيراً إلى ما ذكره البقاعي في حساب روح الكافر بعد أن ترد إلى جسده في القبر "فيأتيه ملكان، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري فيقولان له ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري فيقولان له: من هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقال: محمد، فيقول: هاه هاه، لا أدري ثم ينادي مناد من السماء فافرشوه من النار" [١٠٠].

إلى جانب هذا الموروث الجمعي نعود إلى اللغة العربية لا لتفسير هذين المصطلحين – الهامة والصدى –تفسيراً معجمياً، وإنما لتتبع ظلالهما، ومعرفة أبعادهما، لإدراكنا أن هناك علاقة وثيقة بين البناء الاجتماعي، ومظاهر الزمن، والنظم الدينية، والكهنوتية، والسحرية في مجتمع ما، وبين مظاهر نموه النفسي واللغوي، أو إشارته الكلامية [١٠١] .

واللغة العربية– وكذلك العبرية– في نظر كثير من الباحثين، هي الحارس الأمين على التراث السامي، فيها تبلرت اللغات واللهجات السامية الأخرى، ومن خلال اللغة اشتق الساميون أسماء آلهتهم، وأصنامهم، وأعلامهم، وتقويماتهم، بتأثير من احتياجاتهم النفسية، والمادية، والاجتماعية، ولا يزال بعض هذه الأسماء التي نطق بها الساميون القدماء قبل آلاف السنين يتردد على ألسنتنا بالعامية أو الفصحى.

ولكي نعرف أصل الهامة في اللغة، نعود إلى الكل الذي ضم هذا الجزء (هوم)، ومن خلال مطالعتنا فصل الهاء من باب الميم في (لسان العرب) ، أي الميم والهاء وما يثلثهما، نجد أن المعاني العامة التي يدور حولها هذا الباب تتصل بعناصر كونية– كالهواء، والماء، والأرض، والليل– تفاعل معها الإنسان القديم، وكان لها حضور كبير في حياته ، وارتبطت هذه المعاني

بمظاهر معنوية اتصلت بالعناصر الكونية مثل: السكون، والخفاء، والظلام، والخلاء، والسرعة، وبشؤون إنسانية مثل: النوم، والكبر، والصوت، والدم، والنفس، والطير، فكل مادة من مواد هذا الباب لها علاقة بهذه المظاهر جميعها أو بعضها، وإن تفاوتت في مقدار دلالاتها إلا أنها تدور في بؤرة المعنى العام (١٠٢).

ثم نقترب أكثر وأكثر من الهامة، فنرى مادتي "هوم" و "هيم" تحويان هذه المعاني، وتدوران حولها، فالهوم والتهوم والتهويم: النوم الخفيف، وهوم الرجل: إذا هز رأسه من النعاس، والهامة: رأس كل شيء من الروحانيين، والروحانيون هم الملائكة والجن التي ليس لها أجساد ترى، والهامة: الرأس، وقيل: هي وسط الرأس من ذوات الأرواح خاصة، والهامة: طير، وكانت العرب تقول: إن عظام الأموات، وقيل أرواحهم تصير هامة فتطير، وكانوا يسمون ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت الصدى، ويقال: أصبح فلان هامة: إذا مات، وبنات الهام: أم الدماغ، وهوم الأرض: بطن منها، والهومة والهوماة: الفلاة، وهامت الناقة: ذهبت على وجهها، والهيام: نحو الدوران جنون يأخذ البعير حتى يهلك، والهائم: المتحير، والهيام: العشاق والموسوسون، والهيم: هيمان العاشق والشاعر إذا خلا في الصحراء، والهيام: أشد العطش، والهيام: تراب يخالطه رمل ينشف الماء نشفا، ومفازة هيماء: لا ماء بها، وليل أهيم: لا نجوم فيه.

وفي تقليب مادتي "هوم" و "هيم" تقابلنا المعاني التالية: همى الشيء: سقط، والأهماء: المياه السائلة، وهمت الناقة: ذهبت على وجهها في الأرض، وهوامي الإبل: ضوالها، وكل ذاهب وجار من الحيوان أو من الماء فهو هام، وهمى: اسم صنم، والوهم: الطريق الواسع، وتوهم الشيء: تخيله، ووهم: إذا غلط وسها، وأمهى الشيء: كثر ماؤه، وموه الشيء طلاه، وماه الشيء بالشيء خلطه.

أما الصدى (١٠٣)، فهو شدة العطش، والدماغ نفسه، وحشو الرأس، والصوت، وما يجيئك من صوت الجبل ونحوه بمثل صوتك، والذكر من البوم والهام، وهو الطائر الذي يصر بالليل ويقفز ويطير، ويكون في البراري، وهو طائر يخرج من رأس المقتول إذا بلي ويدعى الهامة، وكانت العرب تقول: إن عظام الميت تصير هامة فتطير، وكانوا يسمون ذلك الطائر الذي يخرج من

هامة الميت إذ بلي الصدى، والصدى في الهامة، والسمع في الدماغ، ويقال للرجل إذا مات وهلك: صم صداه، والمصاداة الموالاة والمداجاة والمداراة.

ومما يلاحظ أن معنى الصدى يرتبط ارتباطا وثيقا بمعنى الهامة، وأن المصطلحين يدوران في فلك واحد، وتجمعهما مجموعة من العلائق المشتركة، فكل منهما له علاقة بالرأس والدماغ، ويدلان على شدة العطش الذي يرتبط بالماء، ويرتبطان بالطير، ويشتركان في الدلالة على الصوت[١٠٤]والموت، والليل، والاختلاط، والجن،[١٠٥] وقد يتبادلان الموقع في الدلالة، فتأتي الهامة بمعنى الصدى، ويأتي الصدى بمعنى الهامة، وهذا ما دفع القدماء والمحدثين إلى التوحيد بينهما، [١٠٦]، ويعود السبب في ذلك إلى ارتباط هذين المصطلحين بالروح والنفس عند الجاهليين، وقد لاحظنا من قبل علاقة التشابك بين الروح والريح والنفس عند الأمم القديمة، فلا غرو إذن أن تترك هذه العلاقة ظلالها على الهامة والصدى عند العرب، فنرى الشعراء الجاهليين يستخدمونهما في معنى واحد.

ومما يعزز ذلك " أن الروح والنفس واحد عند العرب، غير أن الروح مذكر، والنفس مؤنث"[١٠٧]، وأن الهامة والصدى واحد[١٠٨]، بيد أن الهامة أنثى، والصدى ذكرها[١٠٩]، وقد ارتبط الصدى من خلال المعاني التي سقناها بالجبل، والصوت، وذكر البوم، والدماغ، والعطش، وكلها مذكرة، أما الهامة فارتبطت بالبومة الأنثى، والصحراء، والمفازة، والهوة، والبئر، والرأس، والنفس، وكلها مؤنثة.

وقد عبر ربيعة بن مفرغ عن التأنيث والتذكير في الهامة والصدى في قوله[١١٠]:

وشربت بردا ليتني

من بعد برد كنت هامه

هتافة تدعو صدى

بين المشقر واليمامه

فقد استدعى وجود الهامة المؤنثة دعوة ذكرها الصدى، والحديث كله عن الموت وما بعد الموت.

ومن خلال ما ذكرنا، وما سنسوق من أدلة نخالف المبرد في تفسيره معنى الصدى في قول النمر بن تولب[١١١]:

أعاذلَ إنْ يصبح صداي بقَفْرةٍ

بعيداً نآني صاحبي وقريبي

حيث جعل الصدى ما تبقى من الميت في قبره، أي أنه بقايا جثة الميت، والذي دفعه إلى ذلك أنه أخذ قول الشاعر "نآني صاحبي" في عجز البيت على المعنى الحقيقي. إذ كيف يكون الصدى جثة الميت، وقد تحولت عظامه إلى طير حسب اعتقاد العرب، فالروح في معتقدهم هي التي تذهب إلى الأماكن البعيدة المقفرة وتصيح.

لِمَ البوم صدى الهامة والصدى؟

أحب أن أوضح -بداية- أن الهامة والصدى ليسا هما طير البوم نفسه في نظر الجاهليين، ودليل ذلك أن الشعراء الجاهليين استخدموا هذين المصطلحين، لا ليدللوا بهما على البوم نفسه، وإنما على طير مَخيل شبيه بالبوم، يتضح هذا مما ورد إلينا من أشعارهم، فهذا عبيد بن عبد العزى السلامي يقول[١١٢]:

وداويةٍ لا يأمنُ الركبُ جَوْزَها

بها صارخات الهام والبوم يَهتف

فقد جعل الصراخ للهام، وجعل الهتاف للبوم، فالهام والبوم عنده شيئان مختلفان وإن كانا متشابهين، ومن هذا القبيل قول أبي ذؤيب الهذلي[١١٣]:

وسمحة المشي شملال قطعت بـــها

أرضا يحـــار بها الهادون ديمومـــا

مهاما وخـــروقـــا لا أنـــيس بـــها

إلا الضوابح والأصداء والبومـــــا

حيث الثعالب والأصداء والبوم معطوفة بعضها على بعض، وكل منها يمثل جنسا خاصـــــا، ويقول امرؤ القيس[١١٤]:

مهامه موماة من الأرض مجهـــــل

تداعى على أعلامه البوم والصدى

فالبوم غير الصدى في بيت امرئ القيس، قياسا على ما ورد في الشاهدين السابقين، وليـــس كما ذكر محقق ديوانه، ففسر، الصدىعلى أنه ذكر البوم آخذا بواحد من معاني الصدى الكثـــيرة التي ذكرها صاحب (اللسان)، أو متأثرا بما ذهب إليه الآلوسي حين جعل الهامة أنثـــى البـــوم والصدى ذكره[١١٥].

ومما يدل على أن هذين المصطلحين ليسا البوم نفسه، ما ذكره الجاحظ في (الحيوان) وابن قتيبة في (المعاني الكبير)، فقالا: "ويقال للطائر الذي يخرج من وكره بالليل البومـــة والصـــدى والهامة والضوع والوطواط والخفاش وغراب الليل"[١١٦]، فالصدى والهامـــة كـــالبوم والغـــراب وغيرهما من طيور الليل.

ومن الأدلة كذلك أن المبرد أورد ستة أوجه من المعاني للصدى،[١١٧]، ونقل عنه ابن منظور في (اللسان) هذه المعاني[١١٨]، وقد أجمع القدماء في حديثهم عن الصدى الطائر الذي يخرج من رأس الميت على أنه كالبوم، وليس ذكر البوم، وفي ذلك فرق. كما فرق ابن قتيبة بيـــن صـــدى الميت وصدى البوم، ومال إلى ربط صدى البوم بصدى الصوت فقال في شرح بيت رؤبـــة بـــن العجاج الذي يقول فيه[١١٩]:

إذا تداعى في الصماد مأتمـــــه

أحن غيرانا تنادي زجمه

"أحن غيرانا، يريد أن البوم إذا صوتت حنت الغيران بمجاوبة الصدى، وهو الصوت الذي تسمعه من الجبل أو من الغار بعد صوتك".

ولا يعني هذا التوضيح أن لا علاقة للهامة والصدى بالبوم، وإلا كيف جمعت اللغة بينهما في أصل واحد، ولهذا الجمع ما يسوغه لارتباطهما بالروح والموت كما سنرى، ولكن السؤال المطروح هنا، لم صورة البوم ذاتها هي التي تجسدت فيها الروح عبر الهامة والصدى؟ أو لماذا تخيل العرب الهامة والصدى بوما؟ وما هي العناصر التي أهلت البوم ليصار به إلى هذا التصور؟ وهل لهذا التصور جذور دينية وميثولوجية قديمة، غابت عن أذهان الجاهليين وبقيت رواسبها في لغتهم ولا شعورهم؟ أم أن هناك عناصر بيئية دفعت بالبوم إلى أن يحتل هذا الموقع من خيال العرب؟

علاقة التشابه هذه بين البوم والصدى والهامة لها ما يبررها، وتضرب جذورها في أعماق المخيلة البشرية، لأنهما مرتبطان معا بالروح، وقد بدت تلك العلاقة في أولى مراحلها من خلال تجسيد كل ما هو معنوي، والربط بين اللغة وأصوات الطبيعة التي تحيط بالإنسان القديم، وتمثل تلك الأصوات في كل ما يؤرقه ويقلقه.

نعود مرة أخرى إلى الروح والطير والموت، فنقرأ في ملحمة جلجامش على لسان أنكيدو في حلم العالم الأسفل:

ظهر أمامي إله معتم الوجه

ملامحه كوجه طائر الزو

ومخالبه مخالب العقاب

وثب علي وتمكن مني، ثم غاص بي

قام بتحويل شكلي

فغدت ذراعي مكسوتين بالريش

ثم قادني إلى بيت الظلام

إلى دار لا يرجع منها داخل إليها

إلى مكان لا يرى أهله نورا

فالتراب طعام لهم، والطين معاشهم

لباسهم كالطير، عليهم أجنحة من ريش

لا يرون نورا في ظلمة يعمهون (١٢٠)

يطالعنا في النص السابق الطائر (زو)، وهو من قوى العالم السفلي المدمرة، أقلق مضـاجع الآلهة البابلية حين سرق من الإله إنليل ألواح القدر، وهرب بها إلى الأماكن البعيدة، تاركا الآلهـة في خوف شديد خشية أن يؤول مصير الكون إلى هذه القوى المدمرة الممثلة في هذا الطائر، تقول الأسطورة على لسان الإله "حدد" الذي خاف مواجهة هذا الطائر:

أي أبت، من يستطيع الاقتراب من تلك الجبال الرهيبة؟

وهل بين الآلهة أبنائك شبيه لزو؟

لقد أمسك بين يديه ألواح الأقدار

واغتصب السلطة والملك والسيادة

وطار بعيدا مختبئا في جباله

فكلمته اليوم نافذة

من يعترضه يؤول إلى تراب

ورؤيته تثير في الآلهة الرهبة والقنوط[١٢١]

وأشير هنا إلى أن الريح بالأكادية هي "زاقي قي"[١٢٢]، وقد لاحظنا من قبل العلاقة بين الريح والروح، فهل هناك علاقة بين "زو"[١٢٣] الطائر، والريح "زاقي قي"؟ لعل الإجابة تكمن في الزقو أو الزقي وهو صوت البوم الذي احتفظت به العربية، يقول المرقش الأكبر[١٢٤]:

ونسمع تزقاء من البوم حولنا

كما ضربت بعد الهدو النواقيس

ويقول سويد بن أبي كاهل اليشكري[١٢٥]:

لم يضرني غير أن يحسدني

فهو يزقو مثلما يزقو الضوع

وفي العربية "أزقيت هامة فلان أي قتلته"[١٢٦]، وقد ربط الشعراء بين تزقاء البوم وتزقاء الهامة، فقال بعضهم لابنه[١٢٧]:

ولا تزقون لي هامة فوق مرقب

فإن زقاء الهام للمرء عائب

وتدعى عشتار في بعض النصوص البابلية "سيدة الليل" و "سيدة النواح"، ومن ألقابها "نجمة العويل"[١٢٨]، ومن رموزها الإلهة "ليليت" شيطانة القفار المظلمة، وإلهة الشر والظلام والعالم الأسفل "تصورها الأعمال الفنية التشكيلية على هيئة امرأة مجنحة عارية جميلة الجسد، مكتنزة الصدر، تقف فوق لبوتين، وتنتهي ساقاها بمخالب الطيور الكاسرة عوضا عن القدمين، وعن يمينها ويسارها بومتان"[١٢٩].

والإشارة إلى أن ليليت تأوي إلى الخرائب والأماكن المهجورة في النصوص القديمة، دليل آخر على اقترانها بالبوم، وفيما بعد كانت ليليت تصور على أنها كائن ليلي، تمارس نشاطها في الليل تماما كالبوم، وجدير بالذكر أن البوم يقال له باللاتينية ululu وبالإنجليزية owl، وهذه الألفاظ تذكرنا بلفظة "ليلو" أو "ليلتو" أو "ليليت"[١٣٠].

وتظهر الإلهة هاتور في مصر باسم "سيدة المغارب" وتبدو في الرسوم "وقد ظهرت من أطراف الصحاري القصية عند حدود الغرب، حيث تغيب الشمس لتستقبل الأموات، وتقدم لهم الخبز والماء"(١٣١)، وتخاطب الإلهة "إنانا" وزيرها "ننشور" وهي ذاهبة إلى العالم السفلي فتقول له:

"إنني الآن هابطة إلى العالم السفلي

إن لم أعد من العالم السفلي تندبني عند الخرائب"(١٣٢).

والبوم في التصور العربي -كالهامة والصدى- "يخرج بالليل ويوصف صوته به"(١٣٣)، وهو أبدا مستوحش، يصرخ ويصدح، يوجد في الديار المعطلة، والأماكن المهجورة، ومصارع القتلى، وأجداث الموتى(١٣٤)، وكنية البومة "أم الخراب وأم الصبيان، ومن طبعها أنها تدخل على كل طير في وكره، وتأكل أفراخه، ولمعاداة الطيور لها، يجعلها الصيادون في أشراكهم حتى يقع عليها الطير، ومن خواصها أنها تنام بإحدى عينيها والأخرى مفتوحة، وإذا أخذ قلب البومة، وجعل على اليد اليسرى من المرأة وهي نائمة تحدثت في نومها بجميع ما فعلته"(١٣٥).

من هذا كله ندرك سبب تشاؤم العرب بطير البوم، وفزعهم منه، وتطيرهم به، وذلك لارتباطه بكل ما يبعث على الخوف والموت والظلام، ولقد أثار صوته الليلي الحزين الآتي من الأماكن المهجورة، والمقابر التي تعج بأرواح الموتى، أثار في نفوسهم الفزع والرهبة والخوف، فسموا هذا الصوت المتردد "صدى" وربطوا بين هذا الصوت وأصوات الأرواح التي تخيلوها في أماكنه. فأطلقوا على الذكر منه "صدى" ولكي يكتمل هذا التصور أطلقوا على الأنثى "هامة" كما ذهب إلى ذلك صاحب (بلوغ الأرب)(١٣٦).

ولذا عدوا الهامة والصدى، وهما روح الميت المرفوفة على القبر، ضربا من هذا الطير فتشاءم به المتشائمون، وهل هناك -بعد كل ما ذكرنا- طير آخر من أنواع الطير تتمثل فيه هذه الصفات ليكون أفضل من طير البوم لتجسيد روح الميت القلقة المضطربة الهائمة في البراري والقفار مثلما اعتقد الساميون القدماء؟

وها هو عبيد بن الأبرص يجسد الروح في طير البوم ويشير إلى مكان سكناها في البراري والقفار فيقول(١٣٧):

أو صرت ذا بومة في رأس رابية

أو في قرار من الأرضين قرواح

مغادرة الروح جسد الميت:

لقد آمن العرب ببقاء الروح وديمومتها بعد الموت، فإذا مات الإنسان، وغُيِّب جسده فإن عظامه، أو جثته، أو دم دماغه، أو روحه، تنتصب طيراً "هامة" أو "صدى"، وتبقى حية هائمة بين السماء والأرض، وحتى أولئك الذين أنكروا البعث، لم يكن إنكارهم نابعاً من اعتقادهم بفناء الروح وزوالها، وإنّما من استحالة رجوعها، وعودتها إلى الجسد بعد أن يتحول هذا الجسد إلى هواء أو إلى شيء مثله كالطير، ولهذا نرى شداد بن الأسود يقول في رثائه قتلى قريش يوم بدر(١٣٨):

أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا

وكيف حياة أصداء وهام

أيعجز أن يردّ الموت عني

وينشرني إذا بليت عظامي

ولقد اعتقد القدماء أن الروح تغادر جسد الميت، وانتشر هذا الاعتقاد انتشاراً واسعاً(١٣٩)، فكان الفينيقيون "يعتقدون بوجود روح تفارق الجسم عند الموت، وتستمر حية حياة بطيئة النطاق لا حركة فيها ولا متعة، واعتقدوا أن روح الميت تظل على اتصال وثيق بالجثمان الذي فارقته"(١٤٠)وأن مصيرها متوقف على المصير الذي يمنى به جسد الميت، ولهذا كان من المهم أن يحفظ الجثمان من كل ما يمسه، وتظل الروح تعيش بين الضفاف أو الظلال طالما كان الجسم سليما مودعا في القبر، أو منزل الراحة الأبدية كما يسمّي الفينيقيون قبورهم"(١٤١).

وفي المعتقد المصري القديم "كانت الروح تغادر المقبرة صباح كل يوم، لتزور العالم العلوي (عالم الأحياء)، حيث تتشكل على هيئة طائر يحمل رأسا بشريا، ثم تعود في المساء إلى المقبرة لتستقر في الجسد"(١٤٣).

وهكذا اعتقد العرب أن المقابر مجتمع الأرواح، حيث تجتمع الأرواح حول القبور، تطير فوقها مرفرفة، فقال أبو دؤاد الإيادي(١٤٤):

سلط الموت والمنون عليهم

فلهم في صدى المقابر هام

وقال لبيد(١٤٥):

فليس الناس بعدك في نقير

ولا هم غير أصداء وهام

وقالت الخنساء(١٤٦)

إن الزمان وما يفنى له عجب

أبقى لنا ذنبا واستؤصل الرأس

أبقى لنا كل مجهول وفجعنا

بالحالمين فهم هام وأرماس

والأرواح أبدا مستوحشة قلقة، تصرخ وتصيح كما يصفها قراد بن غوية بن سلمى(١٤٧):

ألا ليت شعري ما يقولن محارق

إذا جاوب الهام المصيح هامتي

ودليت في زوراء يسفى ترابها

علي طويلا في ذراها إقامتي

ويقول عبيد بن الأبرص في بكاء بني أسد قومه(١٤٨):

في كل واد بيـــن يثـــرب فالقصور إلى اليمامـــة

تطريب عان أو صيـــاح محرق أو صوت هامـــة

ويرسم بشر بن عليق الطائي صورة لصياح الروح المهشمة بعـــد أن أصابتـــها ضربـــات السيوف والرماح، وذلك في فخره على بني الرقاع بن عاملة حينما انتصر قومه عليهم، فيصـــف نساءهم وهن يندبن القتلى فيقول(١٤٩):

ينحن على قتلاكم عند معرك

تركنا به هاما يصيح مهشما

أما أبو ذؤيب الهذلي فيقول في رثاء أخيه "نشيبة"(١٥٠):

فإن تمس في رمس برهوة ثاويا

أنيسك أصداء القبور تصيح

وكانوا يعتقدون أن روح الميت تستطيع رؤية الأحياء، ومراقبتهم، وسماع أخبارهم، ولـــهذا كانوا يناجون الميت ويخاطبونه بقولهم: "لا تبعد"(١٥١)، فهامة أمية بن أبي الصلت تتتبـــع أخبـــار أبنائه، وترقب تصرفاتهم، فتنقلها إليه في قبره، ليعلم حالهم من بعده فيقول لهم(١٥٢):

هامي تخبرني بما تستشعروا

فتجنبوا الشنعاء والمكروهـــا

وأن بإمكان الروح أن تنفع الأحياء، أو تلحق الضرر بهم، ويبدو أن عادة رمي البعرة عنـــد العرب ترتبط بتأثير روح الزوج الميت على زوجته التي تركها، حيث يراقبها، فكـــانت المـــرأة الجاهلية "إذا توفي عنها زوجها، دخلت حفشا، ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيبا حتى تمـــر بـــها سنة، ثم تؤتى بدابة، حمار، أو شاة، أو طائر، فتفتض به، فقلما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخـــرج فتعطى بعرة فترمي بها، ثم تراجع بعدما شاءت من طيب أو غيره(١٥٣)"، ويظهر أن هذا الطقـــس

التطهري كان إنذارا بفك الحزن، وطرد شبح روح الميت تفاديا لشره. وقد أشار لبيد بن ربيعة إلى هؤلاء النسوة في قوله[١٥٤]:

وهم ربيع للمجاور فيهم
والمرملات إذا تطاول عامها

واعتقاد العرب في الروح بأنها حية، تعي وتسمع، تفرح وتحزن، تضر وتنفع، دفعهم إلى زيارة القبر ومجاورته، والإقامة عليه أياما وشهورا لمؤانسة صاحبه، يقول قس بن ساعدة الإيادي في صاحبيه اللذين ماتا[١٥٥]:

أقيم على قبريكما لست بارحا
طوال الليالي أو يجيب صداكما

وكان من عادتهم ضرب القباب على القبور "ومن هذه القباب المؤقتة ظهرت الأضرحة الثابتة ذات القباب السامقة الشامخة، كما أن من المعابد المتنقلة أي الخيام المقدسة نشأت المعابد الثابتة عند العبرانيين، وعند الجاهليين، وعند غيرهم من الشعوب."[١٥٦]

ومن هذا الاعتقاد يمكن تفسير سبب تقديس الجاهليين قبور أجدادهم، وتقربهم إليها، حيث كانت قبور ساداتهم وأشرافهم مزارات يفدون عليها، ويذبحون عندها، ويحلفون بها، ويطوفون حولها، ويلجأون إليها طلبا للسلامة والأمان، ومن هذه القبور قبر تميم بن مر جد قبيلة تميم، وقبر عامر بن الطفيل، وقبر جد قبائل قضاعة.[١٥٧] ويوضح بيت بشر بن أبي خازم الأسدي في هجاء أوس بن حارثة مثل هذا الاعتقاد، فيقول[١٥٨]:

جعلتم قبر حارثة بن لأم
إلها تحلفون به فجورا

وفي محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم تسنيم القبور، ورفعها عن سطح الأرض، دلالة كبيرة على تقديس الجاهليين لها، لزعم العرب أن أرواح أمواتهم تؤثر فيهم، فتحميهم، وتدافع عنهم، كما كانت تفعل في حياتها، وهذا الاعتقاد هو الذي دفعهم إلى عبادة الأسلاف، وهي من أهم فروع الدين القديم، كما أدى إلى شيوع الكهانة وتحضير الأرواح والإيمان بتناسخها[١٥٩]

واعتقاد العرب ببقاء الروح حية جعلهم يتخيلونها تعيش شكلاً من أشكال الحياة هو أقرب ما يكون إلى حال الإنسان في الحياة الدنيا، فهي تستعمل في معاشها ما يستعمله الإنسان وتحتاج إلى ما يحتاج إليه، من نوم، وطعام، وشراب، وكساء، ولذا كانوا يخرجون حصتها "مما يأكلونه ويشربونه يسمونها باسم الميت .. وكانوا يسقونها بصب شيء من الماء على القبر.(١٦٠)"

وكان من عادتهم عقر الإبل على القبور، ونضح جوانبها بالدماء، وتضريجها بها، وقف رجل على قبر النجاشي فقال: "لولا أن القول لا يحيط بما فيك، والوصف يقصر دونك، لأطنبت بل لأسهبت، ثم عقر ناقته على قبره وقال(١٦١):

عقرت على قبر النجاشيِّ ناقتي
بأبيض عضب أخلصته صياقله
علي قبر من لو أنني مت قبله
لهانت عليه عند قبري رواحله

ومرّ حسّان بن ثابت على قبر ربيعة بن مكدّم، وكان ممن يُعقر على قبره في الجاهلية، فنفرت ناقته فقال(١٦٢):

لا تنفري يا ناقُ منه فإنَّهُ
شَرَّابُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لحروبِ
لا تَبْعَدَنَّ ربيعة بن مُكدَّمٍ
وسقى الغوادي قَبْرَه بِذَنوبِ
لولا السفار وطولُ خَرقٍ مهمهٍ
لتركتُها تمشي على العُرقوب

ولقد انتشرت هذه العادة عندهم حتى غدت وصية يوصي بها الآباء أبناءهم بأن لا يبخلوا في تنفيذها بعد موتهم، وإلا دعوا عليهم بالفقر والعُدم، قال جريبة بن الأشيم مخاطباً ابنه:(١٦٣)

إذا متُّ فادفني بحرَّاء، ما بها
سوى الأصرخين، أو يُقوّزَ راكب

فإن أنت لم تعقر علي مطيتي
فلا قام في مال لك الدهر حالب

ومن مظاهر تأثير هذه العادة وتأصلها فيهم، أنها بقيت سائدة إلى العصر الأموي، على الرغم من أن الشريعة الإسلامية قد أبطلتها في قول الرسول صلى الله عليه وسلم "لا عقر في الإسلام"[١٦٤] فقد عقر الفرزدق الشاعر فرسه على قبر صديقه بشر بن مروان والي العراق.[١٦٥]

واختلف في تفسير هذه العادة، فقال قوم: إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره في حياته، وينحره للأضياف، وقال آخرون: إنما كانوا يفعلون ذلك إعظاما للميت كما كانوا يذبحون للأصنام، وقيل: إن الإبل أنفس أموالهم، فكانوا يريدون بذلك أنها هانت عليهم لعظم المصيبة[١٦٦]

ويذهب الدكتور الحوفي "إلى أن العقر كان تكريما للميت، وإشهارا لفضله بين الناس، وتباهيا بما نحر بنوه من ذبائح لإطعام الفقراء، وإذا كانوا قد تياسروا لتوزيع لحم الذبائح على المحاويج، فقد عقروا على القبور لإطعام المحاويج[١٦٧]"، ويعلل ذلك بأن "بعض الناس ما زالوا إلى اليوم يعقرون الذبائح على عتبة الدار أو على المقبرة، ويوزعون اللحم على الفقراء، ثم إن الرعاة في أريتريا إذا مروا بمقابر أقربائهم حلبوا البقرة، والقوا ببعض لبنها على القبر ذاكرين اسم الرجل.[١٦٨]"

والاختلاف في تفسير هذه العادة يشير إلى اختفاء أصلها والباعث على وجودها، وأرى أنها بقايا طقس جنائزي قديم، ينساق في سياق توفير الطعام لروح الميت التي ترتاح لوجوده، وليس الهدف من وراء هذا العقر إطعام المحاويج كما ذهب الدكتور الحوفي، ذلك لأنهم كانوا ينحرون النوق ثم يتركونها، أو يربطونها حتى تبلى وتموت، ثم إن النحر على عتبات الدور يرتبط عند الشعوب القديمة بدفن الموتى تحت هذه العتبات حتى تبقى روح الميت قريبة من أهل البيت انطلاقا من مبدأ تناسخ الأرواح، والدليل الذي ساقه عن صب الحليب على قبور الأريتريين لا يدل على إطعام المحاويج؟ بل إنه يؤكد اعتقادهم بأن أرواح موتاهم هي التي تشرب هذا الحليب؟

لا بد أن يكون هذا النحر كما يقول الدكتور جواد علي: "من الشعائر الدينية، والعقائد الجاهلية التي لها علاقة بالموت، وباعتقادهم أن موت الإنسان لا يمثل فناء تاماً، وإنما هو انتقال من حال إلى حال.[١٦٩]"

فالروح في التصور العربي تجوع وتعطش، ويستدل من أشعار الشعراء الجاهليين أن موتاهم يأكلون ويشربون، فهذا أوس بن حجر يرثي عمرو بن مسعود الأسدي فيقول:[١٧٠]

المطعم الحي والأموات إن نزلوا
شحم السنام من الكوم المقاحيد

فلنا أن نحمل معنى الأموات في هذا البيت على معناها الحقيقي النابع من بقايا معتقداتهم، ولا ضرورة لأن نأخذها على معناها المجازي، أو أن نبدّل في رواية البيت كما فعل اليزيدي في أماليه حيث روى البيت "المطعم الجار والأضياف.[١٧١]"

فأرواح الأموات هي التي تأكل من هذا الطعام، ومثل هذا الاعتقاد ليس غريباً على العرب، فقد كشفت الحفريات في مقابر البحرين القديمة عن مئة ألف قبر عثر فيها على أدوات وأوان للطعام، وحلي وجواهر وضعت إلى جوار الأموات[١٧٢]، وليس غريباً كذلك عن الأمم القديمة، فقد عُرِفت عادة إطعام أرواح الموتى عند البابليين،[١٧٣]، والمصريين[١٧٤]، والإغريق.[١٧٥]

وقد تكرر في الشعر الجاهلي الدعاء بالسقيا للميت، وهذا الدعاء يدل على اعتقادهم بعطش الروح وهيامها وصداها، ورغبتها الشديدة في الماء، فهي أبداً تصيح اسقوني، اسقوني، ورأينا من قبل ارتباط الهامة بالهيام وهو جنون العطش، وأن الصدى يدل على شدة العطش، وغالباً ما كان الدعاء بالسقيا لصدى الميت وهامته أي إلى روحه، وليس للميت نفسه، فأوس بن حجر يستسقي لقبر فضالة بن كلدة، ويدعو له بالمطر الغدق الذي يسقي صداه رفها في العشي والإبكار فيقول[١٧٦]:

لا زال مسكٌ وريحان لـــه أرجٌ
على صداك بصافي اللون سلسال

يسقي صداك ومُمساه ومُصْبَحهُ
رِفْها ورمسك محفوف بأظلال

وتدعو الخنساء لهام صخر بالسقيا فتقول(١٧٧):

أسقى بلاداً ضمنت قبـــــره
صوب مرابيع الغيوث السَّـــوار

ومـا سؤالي ذاك إلا لكـــي
يسـقاه هـام بالـروي في القفـار

وقد تطور هذا الدعاء من الدعاء للهامة والصدى إلى الدعاء بسقيا القبر نفسه، ومن ثم البلاد التي ضمت هذا القبر.(١٧٨)

ويبدو أن لهذا الدعاء علاقة ببقايا تراث ديني قديم أو بطقس سحري يرتبط بتقديس قبور ملوكهم وأجدادهم، لاعتقادهم بأن أرواح هؤلاء تضرهم وتنفعهم، فكانوا يستسقون بهذه القبور التي كانت في الغالب على رؤوس الجبال، ويستدعون بها المطر، واعتقاد العرب بقدرة الملوك على إنزال المطر معروف عندهم، فكثر في أشعارهم مثل قولهم: يستسقى الغمام بوجهه أو يستسقى الغمام به(١٧٩) وفي ظل هذا الفهم فإنني أخالف ما درج عليه القدامى والمحدثون في تفسير بيت ذي الإصبع العدواني:(١٨٠)

يا عمرو إن لم تدع شتمي ومنقصتي
أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

هذا البيت الذي اتخذوا منه حجة ودليلاً على وله العرب بالثأر، وحبهم لسفك الدماء، واستدلوا من خلاله على تعطش روح القتيل لدم القاتل، ورغبتها في الثأر منه.

وقد أصاب هذا البيت شيء من التصحيف والتحريف، فهو كما رواه الضبي(١٨١)، والمبرد(١٨٢)، برواية "حيث تقول الهامة اسقوني" بدلا من "حتى تقول"، فالشاعر سيضرب عمراً على رأسه حيث مقتله، وحيث تخرج من هذا المكان الهامة عطشى هائمة تطلب الماء والسقيا، ولا إشارة في هذا البيت إلى أن السقيا سقيا دم لا سقيا ماء، ثم إن الهامة لا تخرج من رأس القتيل وحده، وإنما "كانت الجاهلية تقول ليس أحد يموت فيدفن إلا خرج من قبره هامة(١٨٣)" سواء مات قتلاً أو مات حتف أنفه، فصياح الهامة وطلبها السقيا لم يكن للذي مات مقتولاً وحسب، وإنما كان أيضاً للذي مات ميتة طبيعية ولا تستدعي ميتته صياحاً للأخذ بثأره.

ولا أرى كذلك ما رآه الآلوسي في تفسير قول أحد الشعراء مخاطبا ابنه:(١٨٤)

ولا تزقون لي هامة فوق مـــرقب
فـــإن زقـــاء الـــهام للمرء عـــائب
تنادي: ألا اسقوني وكل صدى به
وتلك التي تبيض منهـــا الذوائـــب

حين قال: "يقول له: لا تترك ثأري إن قتلت، فإن تركته صاحت هامتي اسقوني... ويحتمـــل أنه يريد صعوبة الأمر عليه وهو مقبور إذ لم يثأر به، ويحتمل أن يريد صعوبة الأمر على ابنـــه يعني أن ذلك عار عليه.(١٨٥)"

فقول الشاعر لا يشير إلى الأخذ بالثأر(١٨٦)، وإذا كانت كل هذه الاحتمـــالات التـــي ذكرهـــا الآلوسي واردة فلماذا لا يكون قول الشاعر "وتلك التي تبيض منها الذوائب" في سياق خوف هـــذا الرجل من عطش روحه وجوعها بعد موته، وبذلك يأتلف قول الشاعر مع قول جريبة بن الأشـــيم حين طلب من ابنه أن يعقر الناقة على قبره.

وفي ضوء ما سبق يمكن تفسير سكب الخمر على قبر الميت عند الجـــاهليين علـــى أنـــه – كالعقر والنحر – بقايا طقس ديني قديم تمتد جذوره إلى السومريين، ويقصد من ورائـــه إرضـــاء روح الميت والتقرب إليها، تقول أسطورة موت جلجامش:

"جلجامش بن نينسون يرقد في قبره

في مكان التقدمات قدم الخبز

وفي مكان القرابين سكب الخمر.(١٨٧)"

فقد كانت الخمرة مقدسة، تقدم قرابين للآلهة، وتوضع في قبر الميت(١٨٨)، وها هو قس بـــن ساعدة الإيادي يربط بين القبر والصدى والخمرا فيقول في رثاء صديقيه:(١٨٩)

أقيم على قبريكما لست بارحا
طوال الليالي أو يجيب صداكما
أصب على قبريكما من مدامة
فـــإن لـــم تـــذوقاهـــا أبـــل ثراكمـــا

فإذا لم يذق صداهما خمرته فلا أقل من أن يبلّ ثرى قبريهما بها، أو أن يمارس هذا الطقس على قبريهما إرضاء لروحيهما.

ويوصي حاتم الطائي زوجه "ماوية" أن تنضح قبره بالخمر فيقول:(١٩٠)

أماوي إما مت فاسعي بنُطفة
من الخمر فانضَحَنّ بها قبري

إن أكثر ما يقلق الشاعر الجاهلي بعد موته أن تبقى روحه هائمة صَدْيا في أرض بعيدة لا ماء فيها ولا خمر:

أماوي إن يصبح صداي بقفرة
من الأرض لا ماء هناك ولا خمر(١٩١)

فحياة أرواح الجاهليين متوقفة على ما يقدمه لها سكان العالم الأعلى من قرابين وأضحيات، وإلا بقيت جائعة، أو أكلت التراب، والأقذار، على نحو ما نجد عند البابليين في حوار جلجامش مع أنكيدو حينما زار الأخير العالم الأسفل:

"هل رأيت الميّت الذي لا تجد روحه من يعتني بها؟

لقد رأيت،

إنه يأكل الأقذار وما يرمى في الشوارع من فتات."(١٩٢)

الروح والغرب

تمحورت الديانات القديمة حول الإلهة الشمس، فمجّدتها، وعبدتها، وجعلت المشرق (أرض طلوعها) منطقة الميلاد وعودته، وجعلت الغرب (أرض غيابها) منطقة الموت والحياة بعد الموت، وقابلت بين الصباح والمساء، وبين الحياة والموت، يقول المتعبّد المصري القديم موجّها خطابه إليها: "عندما تغيبين في الأفق الغربي، تظلم الأرض كما في الموت، ولكن عندما ينبثق

النهار وتشرقين في الأفق، ينهضون وينتصبون على أقدامهم، إنهم يحيون لأنك تشرقين من أجلهم.[١٩٣]"

وتعدّ إلهة الشمس الكنعانية "شفش" تبعاً لرحلتها اليومية رسولاً للآلهة، "وهي تشكل حلقة وصل بين مكان سكن الأحياء، حيث تعطي الضوء نهاراً، ومكان سكن الأموات، الذي تطير من فوقه ليلاً.[١٩٤]"

واعتقد المصريون أن الشمس تموت كل يوم، وتقوم برحلتها الروحية تحت الأرض لتولد من جديد في اليوم التالي، لذا كان مدخل العالم السفلي في نظر الإنسان القديم في الغرب.[١٩٥] وخيل إليه أنه يذهب بعد موته مع الشمس غرباً ليعيش هناك، فصار الغرب مقام الأبدية، وعالم الأموات، وبنى المصريون مقابرهم "الأهرام" غرب النهر[١٩٦]، واعتقدوا أن الجنة التي فيها الأرواح الخيّرة تقع خلف الجبل الغربي حيث مغرب الشمس.[١٩٧]

والغرب هو المكان الذي يقبل منه الموت في التصور الكنعاني، فحين "رفع دانيال عينيه رأى نسوراً آتية من الغرب[١٩٨]"، تلك النسور التي حملت معها أسراب الموت فقضت على ابنه البطل "أقهت. "

والعرب كغيرهم من الشعوب القديمة. ربطوا بين الغرب والموت وغياب الشمس، فالواجب في اللغة هو الميت، ووجبت الشمس وجباً ووجوباً إذا غابت، وفي المعنى الأول يقول قيس بن الخطيم:[١٩٩]

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم
عن السلم حتى كان أول واجب

وجمعوا بين مُغَيْربان الشمس وغيوبها، وبين نهاية الشيء، وحده، وستره، واختفائه[٢٠٠]، وأسندوا "العنقاء" إلى الغرب فقالوا: "عنقاء مغرب"، "وهي كلمة لا أصل لها، ويقال إنها طائر عظيم لا ترى إلا في الدهور، وقيل هو طائر لم يره أحد، ويكون عند مغرب الشمس، وسمي مغرباً لأنه يغرب بكل ما أخذه.[٢٠١]"وصف المسعودي هذا الطائر فقال "إن وجهه على مثال وجه الناس، له أربعة أجنحة في كل جانب منه، وله يدان فيهما مخالب، وله منقار على صفة منقار

العقاب، غليظ أصيل، وقع بنجد والحجاز في بلاد قيس عيلان، ولم يزل هناك يأكل من الوحوش والصبيان وغير ذلك من البهائم.[٢٠٢]"

ويخيل إلي أن العرب ربطت بين هذا الطائر وفعل الموت الذي يصطنعه، فسموا الداهية عنقاء مغربا ومغربة، ومن أمثالهم" "طارت به عنقاء مغرب، أي ذهبت به الداهية[٢٠٣]"وهو شبيه في شكله وفعله بالطائر البابلي "زو[٢٠٤]"، والطائر المصري "بينو[٢٠٥]"، ويمت بصلة إلى البومة التي وصفت أنها أم الصبيان، وكل هذه الطيور في معتقدات أصحابها، لها علاقة بالروح والموت والمنية التي إذا حضرت "فقد تخطف الرضيع من يمين ذراعي أمه، مثلما تفعل مع من بلغ من العمر عتيا.[٢٠٦]"

وقد أشار الشعراء الجاهليون إلى هذا الطائر الأسطوري الذي يخطف الناس، ويحلق بهم، فقال أحد بني هذيل:[٢٠٧]

فلو أن أمي لم تلدني لحلقت
بي المغرب العنقاء عند أخي كلب

وعلق ابن قتيبة على هذا البيت فقال: "وقوله لحلقت بي المغرب، أي لهلكت، كما يقال شللت نعامته[٢٠٨]"، وقال الحادرة في هذا المعنى: [٢٠٩]

كأن عقيلا في الضحى حلقت به
وطارت به في الجو عنقاء مغرب

ولذا تراني بعد ما قدمت عن هذا الطائر، لا أقف عند الحدود التي رسمها الجاحظ في تعريف الغراب، فذكر أن اسمه مشتق من الغرابة والاغتراب والتغريب[٢١٠]، وإنما أذهب إلى أبعد من ذلك فأرى أن اسم الغراب له علاقة بالغرب والعنقاء المغرب، وأن لهذا الطائر جذورا أسطورية وميثولوجية عميقة ليست عند العرب وحسب، وإنما عند الشعوب القديمة الأخرى "فقد كان الإغريق يقدسون هذا الطائر، ويربطون بينه وبين "أبولو" إله النبوءة، كما كان الرومان يعتقدون أنه يستدعي سقوط الأمطار إذا مشى على الرمال، وما زال الناس في بعض جهات أوروبا يعدون نعيب الغراب نذيرا بالموت.[٢١١]"

ونظر الناس إليه نظرة خوف وشؤم ورهبة، لأنه يأكل أجساد الموتى، ولكي يكون الغـــراب من أنكد الطيور وأشأمها، وأبشعها، وأشنعها عند العرب، لا بد وأن تكون له جذور عقدية عميقة، تتجاوز المشاعر النفسية، والتقلبات المزاجية، وتتأرجح بين التشاؤم والتفاؤل. لاسيما أن البدائيـــن كانوا يعتقدون أن "بوسعهم اكتساب صفات الميت عن طريق أكل جزء من جسده، وربما تصوروا على هذا النحو أن الطيور المفترسة التي تعيش على أكل الرمم، تمتلك لهذا السبب الحكمة، وغير ذلك من الصفات التي كان يتصف بها الشخص المتوفى.[٢١٢]"

مكان الروح

ليس المكان في الفكر الميثوبي نظاماً من العلاقات والوظائف، وإنما هو صور من المظـــاهر المحسوسة المعاشة، تتلون بعواطف أصحابها، فرحاً وحزناً، سعادة وشـــقاء، خوفـــاً وطمأنينـــة، وتتأثر هذه الصور بالمظاهر الكونية التي تحيط بالإنسان، حيث تضفي عليـــها معـــاني خاصـــة، فالليل والنهار يربطان الشرق والغرب بالحياة والموت كما رأينا من قبل.

وتبدو علاقة الروح بالمكان مرتبطة بنظرة الإنسان القديم للروح، تلك النظرة التي وحـــدت بين الخالق والمخلوق، وأولية الروح ونهايتها، فلقد خرجت الحياة كلها، ونشأت مرحلة التكويـــن الأولى في الأعماق، أو الهاوية على المياه الأولى (الغمر)، حيث الظلام والليل والخواء والمـــلء، "وتؤكد معظم أساطير الخلق والتكوين على ظهور النشأة الأولى من لجة الظلمة الأزليـــة، ففـــي أسطورة التكوين البابلية كانت تعامة هي الرحم المائي المظلم الـــذي نشـــأ عنـــه الكـــون، وفـــي الأسطورة المصرية نجد "تون" العماء البدئي المظلم، والرحم المائي الذي أنجب أول الآلهـــة "رع" وعند الكنعانيين، نجد أنه في البدء لم يكن هناك سوى ريح عاصف، وخواء مظلم، وفي التكويـــن التوراتي أنه خلق الرب السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة خالية، وعلـــى وجـــه الغمـــر ظلمة، وفي الأسطورة السومرية، تنبثق الأجرام السماوية من ظلمة العالم الأسفل.[٢١٣]"

هكذا كانت بداية البداية، وهكذا هي نهاية النهاية أيضاً، وبينهما تكون رحلـــة الحيـــاة التـــي تنتهي بذهاب الروح أو خروجها متوجهة صوب ذاك العالم، فتلغى المسافة بين الهواء (الـــووح) صفة قوى الفعل والحركة، سكان العالم العلوي الأحياء، وبين الهاوية والهوة والمهواة، مكان قوى

الخمول والقصور الذاتي، سكان العالم السفلي الأموات، ويصير هوى النفس الـــذي هـــو الإرادة والغلبة والحياة، هو الموت عينه في بيت النابغة الذبياني:(٢١٤)

وقال الشامتون هـــوى زيـــاد
لكـــل منيـــة سبـــب مبيـــن

وتصبح البئر (٢١٥) التي كانت مصدراً للحياة، جهنم أرضية، وبوابة للعـــالم الأســـفل، الـــذي تخرج منه الأرواح فتتجمع فيها، لتلتقي عبرها بسكان العالم العلوي، حيث يلجـــأ الأحيـــاء إليـــها يناجون من خلالها تلك الأرواح ويكلمونها، فتجيبهم وترد عليهم، ويسمعون منها كل ما يريـــدون، حتى لكأنهم يظنون أن الحياة قد عادت إلى أصحابها، وأن الأموات سيعودون مرة أخـــرى إلـــى الدنيا، قال أحدهم:

ألم تعلمي أني دعوت مجاشعـــــاً
مـــن الحفر والظـــلماء باد كسورهـــا
فجاوبني حتى ظـــنـــنت بـــأنـــــه
سيطلع من جوفاء صعب حدورهـــــا
لقد سكنت نفسي وأيقنت أنـــــــه
سيقدم والدنيا عُجابٌ أمورهـــــــــا

وقال آخر:(٢١٧)

دعوناه من عادية نَضْبَ ماؤهـــــا
وهدم جاليها اختلاف عصـــــــــورِ
فردّ جواباً مـــا شـــككت بـــأنـــــه
قريب إلـــيـــنـــا بالإيـــاب بصـــــيرُ

وقد لا تردّ الروح على مناديها، قال أحدهم في ذلك:(٢١٨)

دعوت أبا المغوار في الحفر دعـــوة

فما آض صوتي بالذي كنت داعيا

أظن أبا المغـــوار في قعر مظلـــم

تجر عليه الـــذاريـــات الســـوافيا

وقال آخر:[٢١٩]

وكم ناديته والليل ســـــــــــاج

بعاديّ البئار فما أجابـــــــــــا

وقد أورد الآلوسي هذه الأبيات شاهداً على ما كانوا يفعلونه في اقتفاء أثر الغـــائب إذا غـــمّ عليهم أمره، فكانوا يذهبون إلى بئر عادية قديمة، مظلمة القعر، وينادون فيها يا فلان أو يـــا أبـــا فلان ثلاث مرات، ويزعمون أنه إن كان حياً سمعوا صوته ربما توهموه وهماً، أو سمعوه مـــن الصدى.[٢٢٠]

ولنا أن نتساءل فنقول: لِمَ يُشترط في هذه البئر أن تكون عادية قديمة مظلمة؟ ولـــم المنـــاداة ثلاثاً في سكون الليل وهدأته؟ وهل هذا مجرد اقتفاء لأثر، وبحث عن غائب؟ وإذا كـــان الأمـــر كذلك فلم لا يخرجون ذلك الذي يردّ عليهم إن كان حياً؟!

أرى أننا أمام طقس أو بقايا طقس ديني قديم، يقوم به أصحابـــه فـــي مكـــان مقـــدس[٢٢١]، يستحضرون فيه أرواح غيّابهم، وقد كانت عادة تحضير الأرواح مشهورة عند الساميين[٢٢٢]

مستقر الروح إذن في التصور العربي الجاهلي هو العالم السفلي، أو بـــاطن الأرض، وبـــذا تكون البئر نافذة عالم الأرواح الذي تطل من خلالها على عالم الأحياء، والشعراء لم يذكروا ذلـــك صراحة، وإنما ذكروا أن أرواحهم تكون في حفرة أو هوة مظلمة، خاوية، خالية، مليئة بالصيـــاح والصراخ.[٢٢٣]

ونظرا لشفافية الروح وهلاميتها وخفة وزنها، فإن بمقدورها أن تخرج من العالم السفلي عبر القبر، فتعبر المسافات البعيدة، وتتواجد في أماكن متعددة، فقد تكون في القبر، أو فوقه أو حولـــه،

وقد تقف على قمة جبل أو ربوة، وقد تهيم في الهواء بين السماء والأرض، أو قد تصل إلى الأماكن النائية الخاوية التي لا ماء فيها ولا شجر، بيد أن ما يميز تلك الأماكن جميعها أنها خاوية مظلمة، خالية، يقول عبيد:(٢٢٤)

أو صرت ذا بومة في رأس رابية *أو في قرار من الأرضين قرواح*

فالرابية أو الجبل هو المكان الذي ذهبت إليه روح عبيد في صدر البيت، والجبل من الأماكن المقدسة كما لاحظنا من قبل، أما المكان الثاني الذي تذهب إليه روحه فهو القرواح، الأرض الفضاء التي لا يستمسك فيها الماء، ولا نَبْت فيها ولا شجر.

ومن الأمكنة التي تذهب إليها الروح وتتواجد فيها، المواضع النائية البعيدة عن الإنس والتي لا تصل إليها أرجل السابلة، وقد ذكر الشعراء تلك الأماكن في معرض فخرهم بشجاعتهم، وقوتهم، وقدرتهم على الوصول إلى تلك الأماكن واجتيازها رغم ما بها من مخاوف فقال امرؤ القيس: (٢٢٥)

وداوية قفر كأن الصدى بها *إذا ما دعا عند المساء حزين*

وقال ربيعة بن مقروم: (٢٢٦)

في مهمه قذف يخشى الهلاك به *أصداؤه ما تني بالليل تغريدا*

وقال أسماء بن خارجة: (٢٢٧)

وبه الصدى والعزف تحسبه *صدح القيان عزفن للشرب*

هكذا بدت الروح في مخيلة الشاعر الجاهلي من خلال صداها" الهامة والصدى" متسقة مع تصور الانسان القديم لها، فهي نفح، وريح، ونفس، ونسيم، وهي طير في هيئة البوم تزقو وتصيح، تجوع و تعطش، تنزل إلى عالمها السفلي، وتخرج منه، فتحوم وتسبح في الهواء،

وترفرف في الأعالي، فتزور الأحياء، وتعود إلى أماكن سكناها في القبور أو الحفر أو الآبار أو الأماكن القصية النائية.

الهوامش

(1) Lewis Spence, Myths and Lenends of Babylonia and Assyria P.P 321

(٢) نسيب الخازن – أوغاريت (أجيال، أديان، ملاحم)، دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت، ١٩٦١، ص ٣١.

(٣) د. شوقي عبد الحكيم، الفلكلور والأساطير العربية، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٨م، ص٣٢ .

(٤) د. أحمد كمال زكي، الأساطير، دار العودة، ط٢، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٤ .

(٥) الجاحظ، الحيوان، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ط٢، القاهرة ١٩٦٥، ٧٤/١.

(٦) ديتلف نتلسن، التاريخ العربي القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢٢٧.

(٧) يرى د. شوقي ضيف أن موضوعات الشعر الجاهلي قد تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة، انظر: العصر الجاهلي، دار المعارف ط٨، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٩٦ .

(٨) د. نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى، ط٢، عمان، ١٩٨٢م، ص ٢١ .

(٩) سورة المؤمنين: آية ٨٢، وقد صور القرآن الكريم هذا الإنكار في آيات عديدة انظر: الأنعام: آية ٢٩، النمل: آية ٣٨، الإسراء: آية ٤٩، الدخان: آية ٣٤، سبأ: آية ٣، الجاثية: آية ٢٤، السجدة: آية ١٠، التغابن: آية ٧، الحج: آية ٥، هود: آية ٧، الرعد: آية ٥، النمل: آية ٦٧ .

(١٠) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠م، ١٣٨/٦ .

(١١) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، ط١، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٨ .

(١٢) سميت بذلك من أول كلمتين فيها وتعنيان "حين كان بأعلى" انظر: د. صموئيل نوح كريمر، أساطير العالم القديم، ترجمة د. أحمد عبد الحميد يوسف، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣م، ص ٩٨ .

(١٣) انظر: فراس السواح، مغامرة العقل الأولى ص ٥٨+ ٥٩، وكريمر، أساطير العالم القديم ص٩٩، و د. محمد العربيي، الديانات الوضعية المنقرضة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥، ص ١٥٥ .

(١٤) انظر: أنطون زكري، الأدب والدين عند قدماء المصريين، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٢٣م، ص ٧١.

(١٥) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين، دمشق،١٩٩٥، ص١٥٥ .

(١٦) فراس السواح، لغز عشتار (الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة) ، دار علاء، دمشق، ١٩٩٦م ، ص١٧٨.

(١٧) كريمر، أساطير العلم القديم، ص٣٤١.

(١٨) سفر التكوين ١: ٢.

(١٩) المزمور ٦٨: ٤.

(٢٠) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، دار القلم، بيروت، د.ت، ٣٠/١ .

(٢١) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص٣٧ .

(٢٢) تقول الأسطورة: "وسيذبح هناك أحد الآلهة

وبلحمه ودمائه

ستقوم ننتو بعجن الطين

إله وإنسان معاً سيتحدان في الطين أبداً" فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص ٨٢.

(٢٣) المرجع السابق، ص ٧١.

(٢٤) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص ١٩١ .

(٢٥) فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٣، بيروت، ١٩٨٢م، ص٧١ .

(٢٦) سفر التكوين ٨:٢

(٢٧) سفر التكوين ١: ٢٧+٢٨

(٢٨) حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٤، ص١٠٩.

(٢٩) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص٣٨، والمرجع السابق، ص ١٧٦.

(٣٠) حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ص ١١٥ .

(٣١) ملحمة جلجامش، ترجمها عن الأكادية د. سامي سعيد الأحمد، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٤، ص ٥٥٤ .

(٣٢) حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة،ص٢٨٧، وهي أم الإله "نانا" إله القمر، وليس غريباً أن تكون هناك علاقة بين الريح ويرح أو يرخ، ويرح من أسماء القمر حيث سميت منه مدينة "أريحا"، ومن يرخ أخذ التأريخ.

(٣٣) وديع بشور –سومر وأكاد، دمشق، ١٩٨١، ص ٢٢٨.

(٣٤) د. أحمد هبو، المدخل إلى اللغة السريانية وآدابها، منشورات جامعة حلب، ١٩٧٦، ص٣٩٨ .

(٣٥) سفر التكوين ٤:١٢ .

(٣٦) أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من أوغاريت، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣١٨

(٣٧) لطفي الخوري، معجم الأساطير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠، ٢١٩/٢

(٣٨) كلير لالويت، نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر للدراسات، ط١، القاهرة، ١٩٩٦،ص ٣٦٥.

(٣٩) فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، ص٢٧٩ .

(٤٠) انظر مادة "نفس" في لسان العرب وتاج العروس، وفيها: النفس: الروح، خرجت نفس فلان، أي روحه، والنفس: مثل النسيم، والجمع أنفاس، والنفس: الدم، سمي بذلك لأن النفس تخرج بخروجه، والنفس: الأجل، وفي مادة "نسم" : النسم: نفس الروح، وهو نفس الريح والنسم: جمع نسمة وهو النفس، وتنسم: أي تنفس، والنسمة: النفس والروح.

(٤١) لسان العرب، وتاج العروس، مادة"حتف"

(٤٢) ديوانه، تحقيق د. حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٧م، ص٤١.

(٤٣) ديوانه، تحقيق، سيف الدين الكاتب، وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٠ص٧١.

(٤٤) ديوان الهذليين، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ٢٢/٣، وقد نسب صاحب اللسان هذا البيت لأبي خراش الهذلي في مادة (نفس)، ونقول فاضت نفسه: أي مات وخرجت روحه.

(٤٥) ديوانه، مع ديوان عروة بن الورد، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، دون تاريخ ص٩١. ويقول المسعودي"ومن العرب من يزعم أن النفس هي الدم لا غير، وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه، ولذلك سموا المرأة نفساء لما يخرج منها من الدم" مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، ١٩٤٨م، ١٥٣/٢.

(٤٦) ديوانه، تحقيق وشرح د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩من ص٤٧.

(٤٧) الحكاية الخرافية، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣م، ص٧٦+٧٧.

(٤٨) فراس السواح، لغز عشتار، ص١٤٨.

(٤٩) انطون زكري، الأدب والدين عند قدماء المصريين، ص٧٥.

(٥٠) لطفي الخوري، معجم الأساطير، ١٥٥/١.

(٥١) سفر التكوين ٢:١ .

(٥٢) عمر الغول، أوجاريتيات، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ١٩٩٧م، ص٥١، ونسيب الخازن، أوغاريت، ص ٢٣٥ .

(٥٣) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص ٢٦٥ .

(٥٤) أنطون زكري، الأدب والدين عند قدماء المصريين ص١٠٢، و د. محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، ط٢، بيروت، ١٩٨٠م، ص٨٥ .

(٥٥) طه باقر، ملحمة جلجامش، دار الحرية للطباعة، ط٤، بغداد، ١٩٨٠م، ص ١٢٢+١٢٣.

(٥٦) جيمس فريزر، أدونيس أو تموز، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م، ص ١٠٠ .

(٥٧) المرجع السابق والصفحة السابقة .

(٥٨) دريني خشبة، أساطير الحب والجمال عند اليونان، دار أبعاد للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٨٣م، ٤١/٢ .

(٥٩) انظر: إنجيل لوقا ١: ٣٤-٣٥، ٣ : ٢١، وإنجيل متى ٣ :١٦-١٧، وإنجيل يوحنا ١ :٣٢، وإنجيل مرقس١:٩.

(٦٠) د. عبد المعيد خان، الأساطير والخرافات عند العرب، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٨٠م، ص٥٧ .

(٦١) المسعودي، مروج الذهب، ١٥٣/٢-١٥٤ .

(٦٢) محمود شكري الآلوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٣١٤هـ، ١٩٩/٢ .

(٦٣) لسان العرب، "هوم" .

(٦٤) المرجع السابق، "نسم" .

(٦٥) ديوانه، تحقيق د. محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢٨٧ .

(٦٦) البقاعي، (ابراهيم بن عمر بن حسن)، كتاب سر الروح، تحقيق محمود محمد نصار، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ١٥٤ .

(٦٧) المرجع السابق، ص١٥٢ .

(٦٨) المرجع السابق، والصفحة السابقة .

(٦٩) يقول د. أنور أبو سويلم: "وتشكل الروح بصورة طائر يصيح ويزقو يطلب الثأر، يخالف تصورات الفكر البابلي عن الموت، فالموت في المعتقد البابلي تدمير للشخصية وإفناء لها، بينما الموت في الفكر الجاهلي حياة جديدة". دراسات في الشعر الجاهلي، ص ٨٦، ويقول د. محمد عبد المعيد خان في أثناء حديثه عن تصور العرب للروح هامة: "ولذا من الصعب على العقلية العربية أن تفهم العقائد التي تتعلق بما بعد الطبيعة، لأنها لم تستعد بتجاربها السابقة لإدراك العقائد التي تفسرها الأديان". الأساطير والخرافات عند العرب ص٤١+٤٢ .

(٧٠) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ٧٨٨/٦ .

(٧١) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٤، بيروت ١٩٧٢م، ٢٦٠/٢، والجاحظ، الحيوان ١٣٥/٣.

(٧٢) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة "عاف" .

(٧٣) د. أحمد هبو، المدخل إلى اللغة السريانية وآدابها ص٣٦٤.
(٧٤) المرجع السابق والصفحة السابقة .
(٧٥) المرجع السابق ص٣٧٦.
(٧٦) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى ص٢٢١.
(٧٧) وديع بشور، سومر وأكاد، ص١٨٢ .
(٧٨) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص٥٨ .
(٧٩) وديع بشور، سومر وأكاد، ص١٧٣ .
(٨٠) حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ص٢٩٢ .
(٨١) لطفي الخوري، معجم الأساطير، ٢٢٠/٢ .
(٨٢) حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ص٢٩٦ .
(٨٣) المرجع السابق، والصفحة السابقة .
(٨٤) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص٢٠٧ .
(٨٥) أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من أوغاريت، ص١٦٠ .
(٨٦) حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ص٢٩٤ .
(٨٧) المرجع السابق، ص٢٩٣ .
(٨٨) المرجع السابق، ص٢٩٥ .
(٨٩) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص٢٢٣، ولطفي الخوري، معجم الأساطير ، ٢٣٤/٢ .
(٩٠) ادوارد الخياط، الديانة والأسطورة الأورثية، مجلة إبداع، العدد الأول، يناير ١٩٩٨، ص٩٣ .
(٩١) لطفي الخوري، معجم الأساطير، ٢٣٠/٢، وحسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ص٢٩٨ .
(٩٢) د. محمد العريبي، الديانات الوضعية القديمة، ص٢٠٦، وكريمر، أساطير العالم القديم، ص٣١٧ .
(٩٣) كريمر، أساطير العالم القديم، ص٣١٦ .
(٩٤) د. محمد العريبي، الديانات الوضعية القديمة، ص٢٢٨ .
(٩٥) لطفي الخوري، معجم الأساطير، ٩١/١+١٠٩ .
(٩٦) المرجع السابق ٢١/٢.
(٩٧) فراس السواح، الأسطورة والمعنى ص٢١٥.
(٩٨) اللسان "همي".
(٩٩) اللسان "هيه".
(١٠٠) البقاعي، سر الروح ص١٣٤.

(١٠١) د.شوقي عبد الحكيم، الفلكلور والأساطير العربية، ص٢١٨

(١٠٢) انظر باب الميم فصل الهاء في لسان العرب، ومن الأمثلة التي اجتزأناها: هتم الشيء: دقه، والهتلمة: الكلام الخفي، والهجم: الهدم، والهجوم: الريح تقتلع البيوت، وهجم الشيء: سكن وأطرق، والاهتجام: آخر الليل، والهدم: القبر، والهذام: دوار يصيب الإنسان في البحر، وهذم الشيء: غيبه، والهذرمة: الخلط والسرعة في الكلام، والهرم: أقصى الكبر، والهردمة، العجوز، وهزم الشيء: غمره بيده، والهزمة: البئر، وهزوم الليل: صدوعة للصبح، والهزم: الصوت، والهازمة الداهية، والهسم: الكسر وكذلك الهشم، ورجل هشيم: ضعيف، والهشوم:ما تطامن من الأرض، والهضيم: الطلع الذي في كوافيره، والغيب، والقصبة التي يزمر بها، والداخل بعضه في بعض، والهقم: البحر الواسع بعيد القعر، والهيقم: حكاية صوت اضطراب البحر، والتهكم: تهور البئر والسيل الذي لا يطاق، وهكمت غيري تهكيما: غنيته، والهلدم: العجوز، والهلقم: الواسع الشدقين، والبحر، والهم: الحزن، والمهمات من الأمور: الشدائد المحرقة، والهاموم: كل شيء ذائب، والهم: الشيخ الكبير البالي، وهم الشحم: أذابه، والهميم: دواب هوام الأرض، والهموم: البئر الكثيرة الماء، والهمهمة: ترديد الصوت في الصدر، وهمهمت المرأة في رأس الصبي: إذا نومته بصوت ترققه له، والهينمة: الصوت، الهنمة: الرجل الضعيف.

(١٠٣) انظر اللسان، (صدي).

(١٠٤) في مادة "صرر" : الصارة: العطش، والصَّرة: أشد الصياح وتكون في الطائر والإنسان، وصرار الليل: الجدجد، وبعض الناس تسميه الصدى.

(١٠٥) هناك علاقة بين الصدى وعزف الجن يقول أسماء بن خارجة في وصف خرق بعيد:

وبه الصدى والعزف تحسبه صدح القيان عزفن للشرب

انظر "الأصمعيات، عبد الملك بن قريب، تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف ط٥، القاهرة،١٩٧٩م،ص٥٠ ، وبين الروح والجن، إذ الأرواح نوع من الجن وهي التي تتعرض للصبيان، انظر الشبلي، بدر الدين عبد الله، غرائب وعجائب الجن والشياطين، تحقيق ابراهيم محمد الجمل، دار الرياض للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٢م، ص٢٥.

(١٠٦) انظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، المعاني الكبير في أبيان المعاني، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٤م ٣٠٥/١، والمبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف بيروت، د.ت، ٢١٩/١، والمسعودي، مروج الذهب،١٥٣/٢+١٥٤، واللسان والقاموس المحيط "هوم" والآلوسي، بلوغ الأرب ١٩٩/١.

(١٠٧) اللسان "روح" .

(١٠٨) ابن قتيبة، المعاني الكبير، ٣٠٥/١ .

(١٠٩) الآلوسي، بلوغ الأرب، ٣١١/٢ .

(١١٠) المبرد، الكامل، ٢١٩/١ .

(١١١) المرجع السابق، ٢١٩/١ .

(١١٢) قصائد جاهلية نادرة، جمع وتحقيق د.يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢، ص١٢٧ .

(١١٣) المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٣، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٤١٩ .

(١١٤) ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٣٣٢ .

(١١٥) بلوغ الأرب، ٣١١/٢، حيث يقول الآلوسي: "وقيل الهامة أنثى الصدى وهو ذكر البوم، وقد يسمونها الصدى والجمع أصداء" فكيف يعقل أن تكون الأنثى ذكراً في قوله: "وقد يسمونها الصدى" أي الذكر، وقد تكون الهامة انثى والصدى ذكره لكن الهامة ليست أنثى البوم .

(١١٦) الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، القاهرة، ١٩٦٥م، ٢٩٨/٢، والنص نفسه في عيون الأخبار، ١٠٧/٢ .

(١١٧) الكامل في اللغة والأدب، ٢١٨/١ .

(١١٨) اللسان، "صدى" .

(١١٩) المعاني الكبير، ٣٠١/١ .

(١٢٠) فراس السواح، لغز عشتار ص ٢١٦-٢١٧. وانظر النص في ملحمة جلجامش تعريب طه باقر ص ١٢٢-١٢٣.

(١٢١) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص١٨٤ .

(١٢٢) ملحمة جلجامش، ترجمها عن الأكادية د. سامي سعيد الأحمد، ص٥٥٤ .

(١٢٣) قد تكون هناك علاقة بين الطائر "زو" وبين الزوّر أو الزون في العربية " وهو كل شيء يتخذ رباً ويعبد من دون الله" (اللسان، زور)، ويوم الزورين، هو يوم بين بكر وتميم، وفيه جاءت تميم ببعيرين وجللتهما وقالت هذان إلهانا (انظر: محمد أحمد جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م، ص٢١٢) ويظهر أن الإله الزوّر يرتبط بالموت والحرب، كما قد تكون هناك علاقة بين هذا الطائر وطير الزرزور، الذي سمي بذلك لزررزرته أي تصويته (اللسان، زرر) والطائران لهما علاقة بالزقو أو الزقي وهو صياح البوم والهامة والصدى .

(١٢٤) المفضليات، ص٢٢٥ .

(١٢٥) المرجع السابق، ص١٩٨، والضوّع: ذكر البوم، ويقال إنه طائر صغير يصيح .

(١٢٦) اللسان، "زقو" .

(١٢٧) الآلوسي، بلوغ الأرب، ٣١٢/٢ .

(١٢٨) فراس السواح، لغز عشتار، ٣١٢/٢ .

(١٢٩) المرجع السابق، ص٢١٦ .
(١٣٠) على الشوك، هل شخصية ليلى أسطورية، مجلة أبواب، العدد ١٥، سنة ١٩٩٨م، ص١٦٣ .
(١٣١) فراس السواح، لغز عشتار، ص٢١٩ .
(١٣٢) وديع بشور، سومر وأكاد، ص١٩٢ .
(١٣٣) ابن قتيبة، المعاني الكبير ٣٠٣/١، ومكان الروح في ملحمة جلجامش "مظلم لا يرى أهله النور" الملحمة، تعريب طه باقر، ص١٢٣ .
(١٣٤) انظر: المسعودي، مروج الذهب، ٥٤/١، والابشيهي (شهاب الدين بن أحمد)، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار القلم، بروت، ١٩٨١م، ص٣٢٥، والآلوسي، بلوغ الأرب، ٣١١/٢.
(١٣٥) الابشيهي، المستطرف من كل فن مستظرف، ص٣٤٥، واعتقاد العرب بالبوم والنوم له علاقة بالموت أيضا إذ الموت في نظر القدماء بعامة نوم، قال جلجامش مخاطبا صديقه أنكيدو حين مات:
ماذا دهاك الآن؟ هل سقط عليك النوم، وهل دهاك الظلام؟
(الملحمة، ترجمها عن الأكادية د. سامي سعيد الأحمد، ص٣٦٨)كما أشار الإنجيل إلى الموت بأنه الموت الثاني، مقابل الموت الأول وهو النوم، (انظر رسالة يوحنا، الكتاب المقدس، ٣٩٧/٢)
وفي إطار هذا التصور قال قس بن ساعدة الإيادي في رثاء صديقيه:

جرى النوم مجرى العظم واللحم منكما
وكأن الذي يسقي العقار سقاكما

انظر "صدر الدين البصري، الحماسة البصرية، تحقيق، مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بروت، ط٣، ١٩٨٣م، ٢١٥/١ .
(١٣٦) الآلوسي، بلوغ الأرب، ٣١١/٢ .
(١٣٧) ديوانه، ص٤١ .
(١٣٨) الآلوسي، بلوغ الأرب، ١٩٨/٢ .
(١٣٩) جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم، ص٣٤ .
(١٤٠) كونتنو، الحضارة الفينيقية، ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، ١٩٤٨م، ص١٥٠ .
(١٤١) المرجع السابق، والصفحة السابقة .
(١٤٣) جيمز، (ت.ج.هـ)، كنوز الفراعنة، ترجمة د. أحمد زهير أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١٥٨، وانظر: د. عز الدين اسماعيل، الفن والإنسان، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٤م،

ص٣٤، وآرنولدهاوز، الفن والمجتمع عبر التاريخ، ترجمة د. فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي، القـــاهرة، ١٩٦٩م، ٢٢/١، ود. صلاح الفوال، سوسيولوجيا، الحضارات القديمة، ص٥٥ .

(١٤٤) الأصمعيات، ص١٨٧، والمعاني الكبير، ٣٠٥/١ .

(١٤٥) شرح ديوان لبيد، تحقيق د. إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م، ص٢٠٨ .

(١٤٦) ديوانها، دار كرم للطباعة والنشر، دمشق، د.ت، ص٦٩ .

(١٤٧) ديوان الحماسة، أبو تمام، (حبيب بن أوس الطائي) تحقيق د. عبد المنعم أحمد صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، ١٩٨٧م، ص٢٨٦ .

(١٤٨) ديوانه، ص١٢٥ .

(١٤٩) قصائد جاهلية نادرة، د. يحيى الجبوري، ص١٩٠ .

(١٥٠) ديوان الهذليين، ١١٦/١ .

(١٥١) انظر ديوان الخنساء: ص٣٨، ٣٩، ٨٢.

(١٥٢) مروج الذهب، ١٣٣/٢.

(١٥٣) بلوغ الأرب، ٥٠/٢، ومثل هذا الاعتقاد مازال موجودا في عصرنا الحاضر في غينيا الجديدة فإذا لم يقدم الأحياء شعورهم للميت، ولم يقوموا بتطهير أنفسهم بعد ذلك، فإنهم لا يتخلصون وفقا لاعتقادهم من تعقب روح الأخ الميت، أو روح الأخت الميتة لهم حيث يسكنهم ويمنعهم من القيام بأعمالهم" (جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم، ص١٨٦.

(١٥٤) شرح ديوان لبيد، ص٣٢١.

(١٥٥) الحماسة البصرية ١م٢١٥.

(١٥٦) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٧٦/٥ ومثل هذا الاعتقاد موجود عند قبائل الطوارق حيث يعتقدون أن أرواح أجدادهم تصعد من القبور لتقدم لهم النصيحة والسلوى، فتخرج النساء إلى القبور ليعرفن أخبار أزواجهم اذا ابتعدوا عنهن" (جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم ص٥٤.

(١٥٧) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٧٦/٥.

(١٥٨) ديوانه تحقيق د. عزه حسن، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢، ص٩٧.

(١٥٩) ومن ذلك أن المراة المقلاة (التي لا يعيش لها ولد) كانت تتوطأ الرجل الشريف عند موته مباشرة حتى يبقى أولادها، حيث تنتقل الروح من الجسد الفاني إلى أحشاء المرأة، وفي ذلك يقول بشر بن أبي خازم في رثاء جنباء بن الحارث من بني والبة:

تظل مقاليت النساء يطأنه يقلن: ألا يلقي على المرء مئزر

ديوان بشر، ص٨٨

(١٦٠) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١٥٩/٥.

(١٦١) الكامل في اللغة والأدب، ٣٦٦/٢.

(١٦٢) ديوانه، تحقيق د. سيد حنفي حسنين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م، ص٣٦٤ .

(١٦٣) د. أحمد محمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٤٩٣.

(١٦٤) صحيح البخاري، كتاب العقيقة.

(١٦٥) الآلوسي، بلوغ الأرب، ٣١٠/٢+٣١١.

(١٦٦) ديوانه، ص٢٦٨.

(١٦٧) د. أحمد محمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص٤٩٣، ويرى د. يحيى الجبوري "أن هذه العادة كانت لإكرام الميت" الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٩٨٦م، ص٣١٨.

(١٦٨) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص٤٩٣+٤٩٤.

(١٦٩) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٣٠/٦.

(١٧٠) ديوانه، ص٢٥.

(١٧١) اليزيدي، أبو عبد الله محمد بن العباس، أمالي اليزيدي، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ١٩٤٨م، ص٢١٧.

(١٧٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٥٣٧/١، ومجلة العربي، العدد ٣٣٧، ديسمبر ١٩٨٦،ص١٤٢.

(١٧٣) انظر: فراس السواح، مغامرة العقل الاولى، ص٢٣٣.

(١٧٤) انظر: فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، ص٨١، وجيمس هنري برستد، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٦م، ص١٠٦.

(١٧٥) انظر: جيمس فريزر، أدونيس أو تموز، ص٨٣، والفلكلور في العهد القديم، ص٥١.

(١٧٦) ديوانه، ص١٠٥.

(١٧٧) ديوانها ص٥٧+٥٨.

(١٧٨) انظر: المفضليات، ص٢٦٨، وديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص١٢١ وديوان أوس بن حجر، ص١٠٨، وديوان قيس بن الخطيم، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، ط٣، بيروت، ١٩١٩م، ص٢٣٧ وديوان الخنساء، ص١٨، ٧٦، ١٠٠.

(١٧٩) انظر: إحسان خضر الديك، الماء في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، جامعة الاسكندرية، ١٩٨٢م ص٥٤+٢٤٣، وأنور أبو سويلم، الاستسقاء في الشعر الجاهلي مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، العدد الأول، ١٩٨٦م، ص٢٣.

(١٨٠) ديوانه، جمع وتحقيق، عبد الوهاب العدواني ومحمد الدليمي، مطبعة الجمهور، الموصل، ١٩٧٣م، ص٩٢.

(١٨١) المفضليات، ص١٦٥.

(١٨٢) الكامل في اللغة والأدب، ٢/٢٢٠.

(١٨٣) السهار نفوري، خليل أحمد، بذل المجهود في حل أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ١٥/٢٤٦.

(١٨٤) الآلوسي، بلوغ الأرب، ٢/٣١٢.

(١٨٥) المرجع السابق، والصفحة السابقة.

(١٨٦) ومع ذلك لا نعدم مثل هذا الربط في الشعر الجاهلي في مثل قول مغلس الفقعسي:

وإن أخـاكم قـد علمتـم مكانه

بسفح قبا تسفى عليه الأعاصر

له هامة تدعـوا إذا الليـل جنها

بني عـامـر هـل للهـلالي ثـائـر

بلوغ الأرب ٢/٣١٢). وأعتقد أن مثل هذا الاعتقاد قد جاء متاخرا، ولم يكن أصلا ومعتقدا، وأنه تطور من دم القربان الذي كان يراق على قبر الميت إلى دم القتيل الذي كان يسفك.

(١٨٧) ملحمة جلجامش، ترجمها عن الأكادية د. سامي سعيد الأحمد، ص١٤١.

(١٨٨) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص٢٣٣.

(١٨٩) الحماسة البصرية، ١/٢١٥.

(١٩٠) ديوانه، تحقيق، كرم البستاني، دار صادر، بيروت، د. ت، ص٤٥.

(١٩١) المرجع السابق، ص٥٠.

(١٩٢) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص٢٢٦، وانظر، ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة د. زكي نجيب محفوظ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ١٩٦٥م، م ١ ج ٢/٢٢١.

(١٩٣) فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، ص٥٩، وقد ربطت الأساطير القديمة بين الموت والنوم كما رأينا وأشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله عز وجل "هو الذي يتوفاكم بالليل...." سورة: الأنعام، أية: ٦٠.

(١٩٤) أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من أوغاريت، ص٤٢.

(١٩٥) انظر: ألن شوزتر، الحياة اليومية في مصر القديمة، ترجمة د. نجيب ميخائيل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ص٨٠، وفرانكفورت، ما قبل الفلسفة، ص٦٣، ونسيب الخازن، أوغاريت، ص١٩٥.

(١٩٦) مراد وهبة، حكمة المصريين، مجلة إبداع، العدد الثاني سنة ١٩٩٨م، ص٤٢.

(١٩٧) أنطون زكري، الأدب والدين عند قدماء المصريين، ص١١٣.

(١٩٨) نسيب الخازن، أوغاريت، ص١٩٥.

(١٩٩) ديوانه، ص٩٠، وفي رواية للطبراني أوردها البقاعي: يؤتى العبد في قبره "فيقال له: اجلس، فيجلس وقد مثلت له الشمس وقد أضيفت للغروب" (سر الروح، ص٢٣٤)، ويعتقد الناس في كوينزلند "بأن الأطفال يصنعون في الغرب البعيد، حيث تستقر الشمس في الماء كاملي النمو، وفي رحلتهم من أرض الغروب إلى أرحام النساء يتحولون إلى عصافير" (جيمس فريزر، أدونيس أو تموز، ص٩٣).

(٢٠٠) اللسان، "غرب. "

(٢٠١) اللسان، "عنق. "

(٢٠٢) المسعودي، مروج الذهب، ٢٢٥/٢.

(٢٠٣) اللسان، "عنق"، و "غرب. "

(٢٠٤) توماس بلفينش، عصر الأساطير، ترجمة رشدي السيسي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٤٢٤، وقد ذكر المؤلف طائر العنقاء باسمه على أنه طير بابلي.

(٢٠٥) لطفي الخوري، معجم الأساطير، ١٥٥/١، عبد هذا الطائر في هليوبوليس باعتباره روح أوزوريس، وهو تجسيد للشمس، شبهه الإغريق بالعنقاء، لا يظهر إلا مرة واحدة كل خمسمائة سنة وهو يشبه في شكله العقاب.

(٢٠٦) كلير لالويت، نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، ص٣٤٧+٣٤٨.

(٢٠٧) المعاني الكبير، ٢٨٢/١.

(٢٠٨) المرجع السابق، والصفحة السابقة.

(٢٠٩) ديوانه، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٩٨٠م، ص٩٢.

(٢١٠) الحيوان، ١٣٥/٣.

(٢١١) جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم، ص١٣٣.

(٢١٢) المرجع السابق، ص١٣٥، وقد أشار العرب إلى مثل ذلك في أمثالهم عن الغراب، فتحرزوا من التصريح باسمه، وكنوا عنه بالأعور، مع أنه مشهور عندهم بالإبصار وصفاء العين فقالوا: "أصح بدنا من غراب، وأبصر من غراب، وأصفى عينا من غراب" (الحيوان، ١٣٠/٣).

(٢١٣) فراس السواح، لغز عشتار، ص٧٨.

(٢١٤) ديوانه، ص٢٢٢.

(٢١٥) يقول الأبشيهي واصفا بئر برهوت بحضرموت: "إنها أبغض البقاع الى الله، مأوها أسود منتن تاوي اليه ارواح الكفار"، المستطرف من كل فن مستظرف، ص ٣٧٥، "وكلمة حزرمات التي وردت في التوراة على أنها الابن الثالث من ابناء يقطان تعني حضرموت ومعناها اللغوي دار الموت، ولعل لهذا المعنى علاقة بالأسطورة التي عاشت عند اليونان أيضا عن حضرموت وأنها وادي الموت" (المفصل في تاريخ

قبل الاسلام ١٣٠/٢. والكلمة لها علاقة بالموت، ويبدو أن تسميتها جاءت من حضور الأموات أي تجمع ارواحهم في هذا الوادي.

(٢١٦) بلوغ الأرب، ٣/٣+٤

(٢١٧) المرجع السابق، ٤/٣

(٢١٨) المرجع السابق، ٣/٢.

(٢١٩) المرجع السابق، والصفحة السابقة.

(٢٢٠) المرجع السابق، والصفحة السابقة.

(٢٢١) كانت البئر مقدسة عند العرب حيث نصبت الأصنام عليها، وخصص لها حرم كحرم الصنم.

(٢٢٢) انظر: جيمس فريزر، الفلكلور في العهد القديم، ص٤٨+٥٠.

(٢٢٣) انظر: ديوان الخنساء، ص١٠٤، والمسعودي، مروج الذهب، ١٥٤/٢.

(٢٢٤) ديوانه، ص٤١.

(٢٢٥) ديوانه، ص ٢٨٦، وانظر، ص٣٣٢.

(٢٢٦) المفضليات، ص٢١٤.

(٢٢٧) الأصمعيات، ص٥٠ ، وانظر، ص٤١٩، وقصائد جاهلية نادرة، ص١٢٧، وديوان حسان بن ثابت، ص١٨٨.